العدد السابع - مارس - ابريل - ماي 2010



مجلة الكنزونة دورية مكتمة بالتاريخ المغربي والعربي

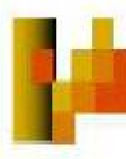
برج البحر باسفي بالابيض والاسود القاتم

العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب «وصف افريقيا»

طريق الوحدة والتنمية البشرية
قدوة الماضي ونداء الحاضر والمستقبل

ذهب السودان الغربي في اوج استغلاله خلال العصر الوسيط.
الموطن...والعلاقة مع المغرب الاقصى

الدعاية الموحدية
قراءة في رواية ابن القطان للقاء ابن تومرت و الغزالي





Dédiée à l'impression numérique grand format,Nobel Création est dotée de la dernière technologie de pointe,et d'une équipe de professionnels hautement qualifiés,réactifs et guidés par la qualité dans leurs actions quotidiennes pour vous offrir des solutions adaptées à votre mesure.

L'offre couvre,en amont,l'assistance technique dans la phase de la conception des projets,le conseil lors du choix des supports d'impression,et ,en aval,la production numérique,la confection jusqu'à l'installation sur site et la mise en œuvre aux services associés qui en découlent.

Nos responsables de clientèles sont des consultants expérimentés qui vous aident à construire des solutions pérennes,offrant toutes les garanties de qualité et de sécurité.Ils restent vos interlocuteurs lors de la production et sont encore à vos cotés pour valider votre satisfaction lors de l'installation.

ولنا كلمة



أزار غزلان

خلال احد اللقاءات العلمية اسر لي احد الفضلاء أنه ينتظر بفارغ الصبر ان ينهار سقف بوابة موقع شالة على رأس فوج من أفواج السياح الاجانب ... ساعتها من الممكن أن تتحرك الجهات المسؤولة من اجل الترميم والالتفات لشقوق الرهيبة التي تعاني منها هذه المعلمة التاريخية البارزة بمدينة الرباط .. وربما تكون الشرارة التي من شأنها أن تلفت النظر لغيرها من المعالم الاثرية المنتشرة هنا وهناك داخل ربوع المملكة من دون أن تهتز قلوبنا بكاءا أو يرف لنا جفن ونحن نتفرج على تلاشيها يوما بعد يوم في عجز مقيت وصمت مشبوه.

انقطعت صلتي بهذا الاستاذ الفاضل ولو إلتقيته اليوم لأخبرته بأنه مخطئ ... مخطئ ... مخطئ .... هاهو جامع باب بردعين قد سقطت صومعته على جماعة من المؤمنين الذين كانوا يؤدون صلاة الجمعة في هدوء وسكينة قبل أن تتحول هذه اللحظات الايمانية لكارثة تجرع كل المكناسيين والمغاربة طعمها العلقم إثر وفاة العشرات من المواطنين الابرياء ... ولا حياة لمن تنادي.

و هاهي الاشهر تتوالى ... وبعد الزوبعة التي أثيرت فور إنهيار هذا الارث الاثري الهام .. و كل المداد المسكوب والكلام المهدور في الصحف والتلفزيون ، و الوعود التي تلقاها المواطن المغربي من طرف المسؤولين بترميم وإصلاح ما يمكن إصلاحه ......مازال الامر على ما هو عليه بل ان الامور زادت سوءا وقتامة وهذا ما شهدناه مؤخرا بمدينة اسفي والانهيار المريع لبرج البحر بسبب» امطار الخير «، بيد أن التهميش والتجاهل هما السببان الحقيقيان وراء هذه الانهيارات الكبرى لصروح كان من الاولى أن نهتم بها بدل أن نلتفت لتوافه الامور لأنها هي وحدها التي تعبر عن ثقافتنا وهويتنا وكينونتنا .



مجلة إلكترونية تاريخية دورية مهتمة بالتاريخ المغربي و العربي



تصدر عن جمعية ليون الافريقي للتنمية والتقارب الثقافي - الدار البيضاء





الغلاف : أطلس ديزاين

المشرف العام

محمد منوار

رئيسة التحرير

أزار غزلان

نائب رئيس التحرير

فاطمة بوجرتاني

هيئة التحرير

الاستاذ عماد البحراني

نادية الزكاني

بشرى الروقي - إدريس الملوكي

حنين محمد

تصميم وإخراج

أطلس ديزاين للتصميم الالكتروني

الافتتاحية

تحف ومتاحف : المتحف اليوناني- الروماني

المراسلات

ترسل جميع المراسلات بإسم رئيس التحرير إلى :

magazin.histoire@gmail.com

magazine.histoire@yahoo.com

الموقع الرسمي لمجلة المؤرخ :

http://magazin-histoire.blogspot.com

دراسات

طريق الوحدة والتنمية البشرية قدوة الماضي ونداء الحاضر والمستقبل

دراسة للأستاذ الباحث : حسن أميلي

لا يفوتني أن أعبر عن اغتباطي بتخليد ذكرى مغربية نموذجية شكلت أرفع لحظات العبقرية المغربية في التاريخ المعاصر، وأبرز شكل من أشكال العطاء الوطني الصادق والخالص، الذي لا يروم منفعة خاصة، ولا سؤددا استثماريا، قدر منفعة التعلق بالأرض والشعب، ومنفعة خدمة الصالح العام بالنقاوة والطهارة المطلوبتين، مثلما جسدتهما « طريق الوحدة »، ومثلما رسختها آلاف السواعد المجهولة للتعبير على أن الوطن الذي يضلل بسمائه كرامة الإنسان لا شك وأن الإنسان ذاته يقابله عشقا بعشق، وفداء بفداء.



هذه المفخرة المغربية التي تكبرني وقائعها بسنة كاملة، سبق لي التعرف عنها وجدانيا من خلال اهتمامي بالعمل الجمعوي منذ أمد طويل في أحضان أحد أعرق الجمعيات بمدينة الجديدة، الجمعية المغربية لتربية الشبيبة، التي كان للعديد من أفرادها الباع الطويل في تأطير هذا المشروع « طريق الوحدة » ما سجله لها التاريخ بدءا بالمفوض العام للمشروع، المقاوم المرحوم عبد السلام بناني، إلى المسؤول عن الجانب التنظيمي الإداري في شخص أستاذي المقاوم المرحوم السي محمد الحيحي، إلى العشرات من المسؤولين على الأوراش واللجن التنفيذية، مرورا بالمراقب العام لمدرسة الأطر الذي تقلد مهمته الأستاذ محمد بنسعيد أطال الله عمره.

كبرت في نفسي رغبة المشاركة بهذه المداخلة للتطرق إلى الخلاصات التي استنتجتها في كتابي التأريخي لطريق الوحدة « طريق الوحدة – صيف 1957: تجربة رائدة في العمل التطوعي » على اعتبار أن طريق الوحدة لم تكن مجرد نموذج طوعي ظرفي، وإنما كان أكثر من ذلك تعبيرا عن طموح أمة ورغبة شعب في خلق مغرب جديد بواقع جديد وإنسان جديد، كبوصلة حقيقية لو قدر لنا أن نتقيد بتوجيهاتها لما كان الواقع هو الواقع ولا المرتبة هي المرتبة، ولا التحديات هي التحديات.

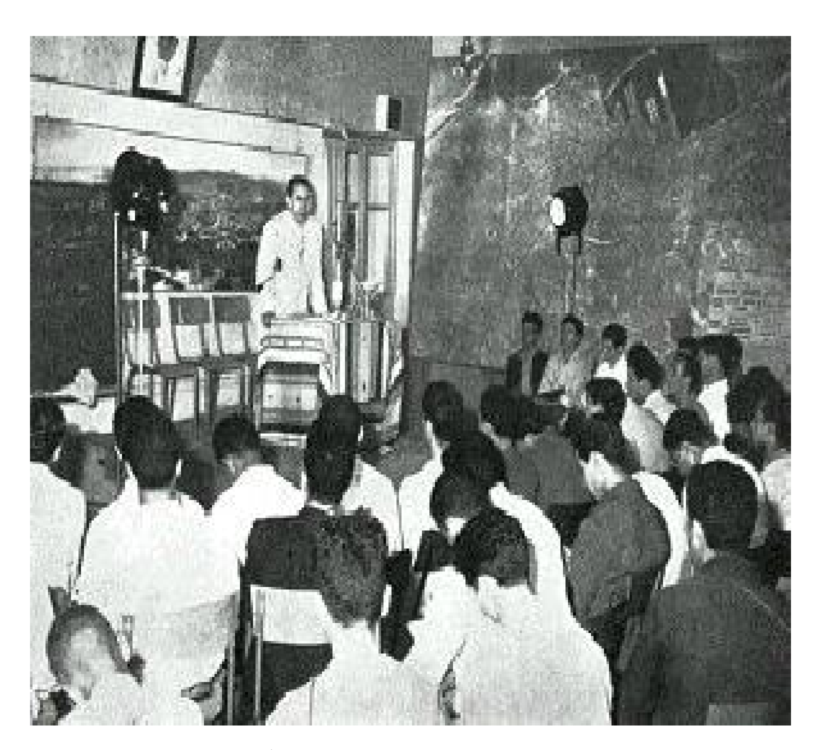


وبما أنني قد أوفيت الطريق حقها حسب ما قدر لي من جهد من خلال تخليدها في الكتاب الذي نشرته منذ سنتين خلت، فإنني وددت أن يكون موضوع مداخلتي متصلا بضرورة اتخاذ تجربة طريق الوحدة كنموذج لا يزال شامخا لخدمة « التنمية البشرية » التي أضحت الشعار المرفوع في السنوات الأخيرة، وذلك بالرجوع إلى أفكارها وطرق تنفيذها.

لقد كان المهدي يؤمن بأن الطاقة الشعبية هي الخلاق الحقيقي للتنمية،

وهي المطور الحقيقي للمجال العام انطلاقا من المجالات الحيوية (دواوير، مراكز، قرى، أحياء المدن)، إنها اللبنة الأساسية لتطوير البلاد والانتقال بها إلى ركب الدول المتوجهة نحو المستقبل، والتي لا يمكن لها أن تتم إلا بتضافر الجهود الشعبية والحكومية، وهذا ما أفصح عنه بجلاء في محاضرته القيمة « مسؤولياتنا أمام الظروف الراهنة »، حين يقول:» إن دعوتنا هي تنبيه الشعب إلى برنامجنا المقسم إلى شطرين: شطر تقوم به الحكومة، وشطر علينا نحن أن نقوم به بأنفسنا في محلاتنا وفي الدواوير والقرى والمدن (...). أما التضليل فلن يؤدي بنا أبدا إلى طريق النجاح بخلاف الأعمال المتواضعة مثل حفر الساقية، وبناء المدرسة الصغيرة، وشق المراحيض في الدواوير (...) وهذه الأعمال هي التي ستوصلنا إلى الاستقلال (...) « .
عند التقائه بطلبة الرباط والبيضاء وباريس، الذين أفضى إليهم بالحديث عن مشروع من شأنه إثارة الحماس واستنهاض الهمم، مفصحا عن طبيعته، قائلا:» ويضم حوله كل أولئك الذين يسعون في خدمة وطنهم.. ويتعلق الأمر بفتح ورش كبير للأشغال العمومية تستفيد منه البلاد كلها، ويدعى إليه الشبان المتطوعون. ومن شأن هذه الأعمال أن تكون طائفة من المسيرين الصالحين، وذلك بفضل الإطار الذي سيشرف عليه، والذي سيشارك فيه الطلبة مشاركة فعالة.. إن هؤلاء المسيرين الجدد الذين سيتكونون في هذا الورش سيصبحون، بعد الرجوع إلى قراهم ومدنهم، قادرين على الإرشاد والإدارة وابتكار الأشغال الإصلاحية في نطاقهم المحلي..


المهدي بنبركة يناقش « مهامنا الراهنة أمام متدربي مدرسة الأطر



برزت فلسفة مشروع طريق الوحدة بشكل تفصيلي في الكلمة التي ألقاها المهدي بن بركة على أسماع متطوعة المرحلة الأولى عند زيارته التفقدية للأوراش يومي 21 و22 يوليو 1957، عدد فيها الخصاص الكبير الذي لا زال المغرب المستقل يعانيه على مستوى البنيات والكفاءات، وضرورة تلاحم كل القوى من أجل رفع تحدي بناء المغرب الجديد، مقدما مشروع طريق الوحدة كنموذج ومبادرة بمقدور إنجازه بنجاح أن يشكل جسرا أساسيا لنقل آثاره ونتائجه إلى مختلف جهات الوطن.. ويقول المهدي في ذلك:» كان تفكير جلالة الملك والمخلصين حوله في أن هذا الشعب المغربي .. سيعرف كيف يبني استقلاله، من ذلك بناء المدارس، مثل هذه المدرسة الكبرى

التي تجمع بين جميع طبقات الشعب، والتي يمكن بها طي المراحل حتى نكون كما حررنا بلادنا بقيادة تلك الفئة التي أنار الله قلوبها بنور الوطنية، نبني استقلالنا بسواعدنا ريثما تتكون مئات الطلبة بالجامعات.

هذه هي الأفكار التي أوحت بتأسيس هذه الطريق. وكانت ذات هدفين متكاملين:

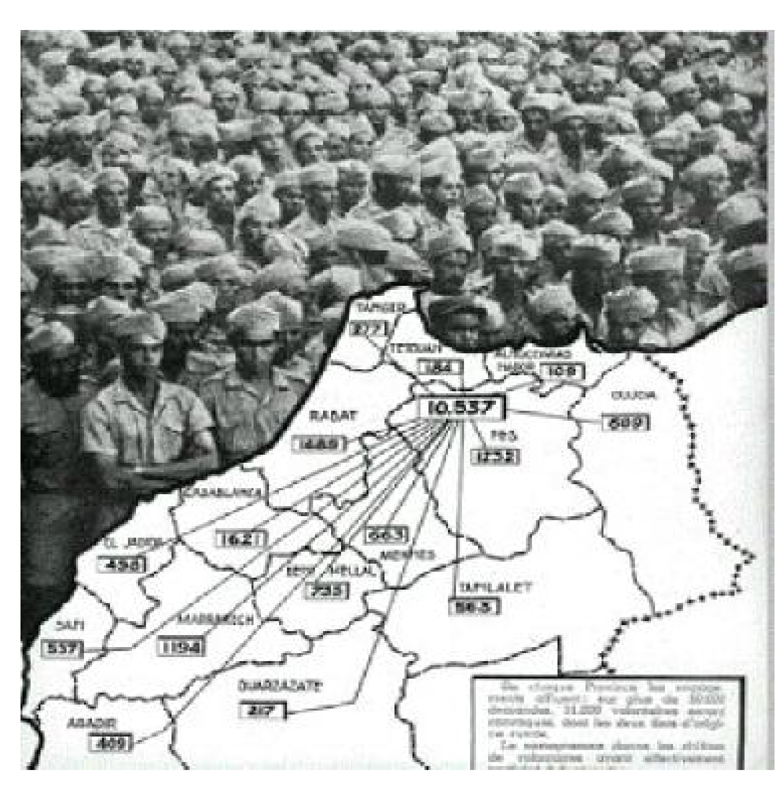
- ربط جزأين من الجسد المغربي الذي كان مفكك الأوصال في ما قبل.

- والسبب الثاني والأهم هو مدرسة يمكن بفضلها في ظرف شهر تلقين الشباب من جميع أنحاء المغرب دروسا جديدة تمكنه من أداء مهمة البناء عند رجوعهم إلى مقارهم.

ويضيف المهدي:» إن بلادنا غنية، ولكن هذا الغنى لا زال تحت الأرض. فنحن فقراء، وسنبقى كذلك إن لم نشمر عن ساق الجد. فبلادنا غنية لكنها تتطلب الجهود لاستخراج ثرواتها. فنحن لم نحرث الأرض ونستخرج الثروة من جوفها، ونؤسس المعامل، ونبني المرافق التي تحتاج إليها بلادنا، فأجدر بنا أن نكون عبيدا لغيرنا... نحن، وهذه هي مهمتنا التي تتطلب كثيرا من الجهد، وتسعا من الوقت، والمغرب سيصبح بلادا مزدهرة إذا شرعنا في البناء ونفضنا عنا الخمول، وعلى كل منكم أن يعرف أنه عضو عائلة كبيرة يوجد من بينكم من لا يعرفونها وإن كانوا يسمعون عنها، ويؤمنون بها ويكافحون من أجلها هم وآباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم... فعليكم أن تعودوا بفكرة البناء إلى مواطنكم، وأن تعاملوا إخوانكم بتواضع ورفق ولين، وأن تتعاونوا معهم على إصلاح أنفسهم، فالتعاون أساس نجاح أعمالنا... كل يعمل من جهته معتقدا أن كل إخلال بالمهمة يضعف من نجاح المشروع. فالكل تجمعه عقيدة واحدة، هي بناء المغرب.. مغرب صحيح متين على أساس الأخوة والصدق، هذا هو المغرب الذي نريد أن نبنيه « .

ترجمة للشعور الوطني الثاقب في فكر الشهيد المهدي، كان يرى أن اندحار الاستعمار لم يكن مطمحا أوحد للحركة الوطنية، وإنما مرحلة أولى ولدت تحديا جديدا حول صيانة المكتسبات والانتقال بها إلى صرح الاستقلال الحقيقي المترجم في انعتاق البلاد من الجمود، واستنهاض قواها لمجابهة البؤس والتخلف وبلوغ التمدن والرقي، معتبرا ذلك جهادا أكبر لا يمكن تحقيق النصر فيه إلا بالتعبئة الشاملة والعقلانية، واستغلال رأسمالها البشري المتمثل في طاقات شبيبتها.

وقد جاء في العرض الذي تقدم به المهدي أمام جلالة المغفور له محمد الخامس في 6 يونيو 1957:» يندرج هذا المشروع بصورة طبيعية في إطار الحملة الوطنية تعبئة القوى الحية للبلاد من أجل تشييد صرح استقلالنا، ويتعلق الأمر ببناء طريق على امتداد ستين كيلومترا بين تاونات وكتامة بفضل العمل التطوعي للشباب المغربي. ويجب اعتبار هذا المشروع كنموذج اختباري سيسمح نجاحه بفتح الطريق لمشاريع أخرى في طور الإعداد من أجل التطور الاقتصادي والاجتماعي للبلد، بالاعتماد على الإمكانات المحلية والوطنية التي تنتظر تعبئتها؛ كما أن فكرة وحدة المغرب التي ارتكز عليها المشروع تعد بالنسبة لنا رمزا مهما «.



حينما أطلقت فكرة بناء طريق الوحدة من طرف الشباب المتطوع لم تكن هناك أية طريق رابطة بين تاونات الواقعة

على الطريق رقم 304 على بعد 95 كيلومترا شمال شرق فاس وبين إساكَن الواقعة على الطريق رقم 39 الموجودة في منتصف المسافة بين الشاون والحسيمة. وقد كانت الوضعية على النحو التالي:

- كانت هناك طريق عسكرية غير معبدة بين خميس الزريزر و تاونات القشور تسمح ببلوغ السيارات إلى المركز الأخير، وكان صعود الوادي من سرا إلى إيمغدن تتسم بالصعوبة البالغة، فيما كانت بقية الطريق مقبولة على العموم.

- من إساكَن شمالا كانت هناك طريق عسكرية أخرى غير معبدة تسمح بتموين مركز إيكاون العسكري، وهي طريق ضيقة وصعبة تشق منعرجات عالية الارتفاع، ولم تكن هذه الطريق مواتية إلا بالكاد للسيارات العسكرية الجبلية في الفصول الملائمة.

- بين المركزين العسكريين القديمين لإيكاون وتاونات القشور، لم يكن المرور متاحا لأية عربة، ولم تكن هناك إلا ممرات للبغال.

ومن أجل تحقيق الربط التام بين خميس الزريزر وإساكَن تقرر بعد المعاينة والدراسات استغلال الممرات العسكرية القديمة في بعض النواحي بعد إدخال الإصلاحات الضرورية عليها، وبناء مقاطع أخرى جديدة تماما بين إيكاون وتاونات القشور التي لم تكن تتوفر على أي ممر حقيقي من جهة، وباستبدال مقاطع من الممرات القديمة التي لم يكن بالمستطاع استصلاحها بشكل معقول من جهة أخرى.

وقد كانت الأشغال المقررة التي تم تنفيذها انطلاقا من الطريق رقم 39 في الشمال على النحو التالي:

1- استصلاح مقطع بطول كيلومترين ونصف انطلاقا من إساكَن.

2- بناء مقطع من 15 كيلومترا بين مخيم الورش رقم 1 وباب بورفود.

3- استصلاح مقطع من 13 كيلومترا بين باب بورفود وإيكاون.

4- بناء مقطع جديد طوله تسعة كيلومترات ونصف بين إيكاون وتاونات القشور.

5- استصلاح مقطع من 13 كيلومترا بين تاونات القشور وإيمغدن.

6- بناء مقطع جديد بطول ثلاثة كيلومترات بين إيمغدن وخميس الزريزر.

7- أخيرا استغلال مقطع شيد قبلا بطول كيلومترين بين خميس الزريزر والطريق رقم 304.

لقد تطلب إعداد هذا البرنامج إذن دراسة 27.5 كيلومترا من الطريق جديدة تماما، وأيضا استصلاح 28.5 أخرى.

ويمكن تلخيص أهمية الأشغال المنجزة طيلة أوراش طريق الوحدة الممتدة ن فاتح يوليو إلى متم شتنبر في الأرقام التالية:

- 330.000 مترا مكعبا من الترصيف.
- إنشاء 140 مجرى طرقي لتصريف المياه.
- إنشاء فتحة قناة قطرها خمسة أمتار.
- إنشاء قنطرة طولها 12.5 مترا فوق أحد روافد واد كتامة.
- إنشاء قنطرة طولها عشرون مترا فوق واد كتامة.
- إنشاء قنطرة طولها أربعون مترا فوق واد كتامة.

إن هذه الأرقام لا تبدو أهميتها القصوى إلا بالانتباه إلى الزمن القياسي الذي أنجزت خلاله، وإلى صعوبة تضاريس المنطقة التي احتضنت الأشغال. فالعمليات التي أنجزت في ظرف ثلاثة أشهر كانت تتطلب في الظروف المواتية مدة لا تقل عن ثمانية عشر شهرا. وأيضا، وقبل انطلاق الأشغال استوجب الأمر خلق كل شيء: استصلاح عيون المياه، وإقامة المخيمات على شاكلة تجمعات سكنية صغيرة لإقرار المتطوعين وتغذيتهم.

ومن ثم يمكن قياس جسامة المهمة التي ألقيت على عاتق المنظمين والمسؤولين، الذين حفزتهم الروح الحيوية للمتطوعين الشباب على إنهائها بروح معنوية عالية.

جلالة المغفور له محمد الخامس يدشن انطلاقة المشروع

مما جاء على لسان أحد المتطوعين في رسالة إلى أحد زملائه المنشورة في جريدة العلم:» لقد تعلمنا – من جملة ما تعلمناه – في طريق التوحيد أن على كل مواطن أن يقوم بمجهوده كفرد لبناء العائلة ولخدمة المجتمع ولتشييد صرح الدولة (...)، وإننا إذ وقعنا باسمنا على تلك الشهادات التي نحملها ، قد تعهدنا أمام الله بأن نكون رسل الثورة الوطنية، التي ما زالت متأججة لتحقيق



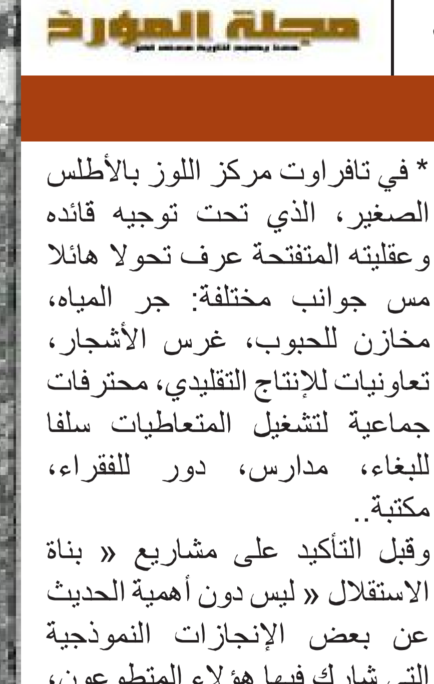
النهضة الكبرى التي كانت نبراس أولئك الذين حرروا بلادنا وأخرجوها من ظلمات الاستعباد إلى نور الحرية (...) « .

وكتب المهدي بنونة:» لننظر إلى الغاية الاجتماعية النبيلة التي يرمي المشروع إلى تحقيقها، إذ أنه سيكون مدرسة للشباب يبعث في نفوسهم روح المبادأة وشحذ عزائمهم للقيام بأعمال إصلاحية في قراهم النائية على أساس ضم الصفوف وتضافر الجهود والتعاون في سبيل الصالح العام. فمشروع طريق توحيد المغرب يعتبر أولا وقبل كل شيء مدرسة لتكوين الإطارات التي ستقود شباب الأمة في إنجاز مشاريع أخرى تقضي على البطالة وتزود البلاد بما تحتاج إليه وسائل النهضة الزراعية والصناعية والاجتماعية.. لقد اجتزنا المرحلة التي يكتفى فيها بمجرد الحماس وبروح الاندفاع اللذين تتسم بهما الشعوب الفتية في بداية عهود نهضتها، وأصبحنا نتطلب إلى جانب ذلك معرفة الغايات والاقتناع بها، وهذه ظاهرة طيبة تدل على النضوج والتبصر « .

مما جاء في خطاب جلالة المغفور له محمد الخميس في خطابه بمناسبة انتهاء أوراش طريق الوحدة:» وإن خير ما أوصيكم به ونحثكم عله، هو أن تحتفظوا بهذه الشعلة التي اكتسبتموها خلال هذه التجربة المباركة، وأن تضعوا أنفسكم رهن إشارة المسؤولين في تواضع وتفان وإخلاص لتحقيق المشاريع التي تقتضيها مصلحة الأمة والوطن.
كما أننا في آن واحد نحث المسؤولين في مختلف أنحاء البلاد أن يستفيدوا من استعدادكم للتجند في سبيل مشاريع الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي التي تتوقف عليها البلاد.
ولا تنسوا أبدا أن المغرب سيظل دائما في احتياج إليكم، وأنه سيصبح بفضل عزيمة الأمة المغربية ميدانا واسعا لمشاريع تتطلب تجنيد شبابه، سواء منهم من شارك في هذه الأوراش، أو من لم يسعده الحظ بالمشاركة فيها. وقد سبق أن نبهناكم في نداء شهر يونيو أن طريق التوحيد ما هي إلا حلقة في سلسلة أعمال عظيمة نعتزم بحول الله القيام بها، والسهر على إنجازها. وفي ضمن هذه المشاريع المختلفة سنبرز في كل سنة مشروعا وطنيا عظيما من قبيل طريق التوحيد «.
شكلت تجربة « طريق الوحدة « نموذجا خلاقا كانت الأفكار المعاصرة له ترى ضرورة عدم بقائه كصنيع معزول، وإنما وجب اتخاذه كمحور صلب ونموذجي لسلسلة من الإنجازات الموجهة بالروح الجماعية والتجديدية.

منظر عام للمتطوعين في طريق الوحدة

لقد اتخذت مبادرات في مختلف أرجاء البلد، غالبا بدفع من الشباب المتطوع ودائما بدعمه، وتميزت بعض الأقاليم أو المراكز بروح الفعل وحماس السكان، مثل:
* إقليم مراكش الذي انطلقت فيه بنجاح عملية تعبئة للسكان من أجل إنجاز أشغال استصلاح الأراضي من الحجر، واقتلاع الأحراش، وتحويل مجاري مياه الفيض في أراضي زمران والسراغنة وبني رحال.





* في تافراوت مركز اللوز بالأطلس الصغير، الذي تحت توجيه قائده وعقليته المتفتحة عرف تحولا هائلا مس جوانب مختلفة: جر المياه، مخازن للحبوب، غرس الأشجار، تعاونيات للإنتاج التقليدي، محترفات جماعية لتشغيل المتعاطيات سلفا للبغاء، مدارس، دور للفقراء، مكتبة..

وقبل التأكيد على مشاريع « بناة الاستقلال « ليس دون أهمية الحديث عن بعض الإنجازات النموذجية التي شارك فيها هؤلاء المتطوعون، الذين غالبا ما نصبوا قادة للأوراش جراء تجربتهم وحماسهم، أو كانوا هم مخططوها.

سليلة طريق الوحدة:

إن هذه العملية التي اختير لها هذا الاسم الرمزي قد تمت في الأطلس الكبير الأوسط، ويتعلق الأمر بتشييد ممر عرضه يتراوح بين 7 و9 أمتار، وطوله 75 كلم، يربط دمنات بسكورة عند وادي دادس بالممر الجبلي الرائع ذي اللقب الشاعري « باب السماوات «. وقد شارك في ذلك ألف عامل مؤطرين بقدماء « طريق الوحدة « بحماس كبير، ومنذئذ أصبح بمقدور العربات الخفيفة ارتقاء باب السماوات حيث يمنح للسائح أحد المناظر الطبيعية الأكثر روعة، كما أضحى بمقدور الشاحنات بفضل هذا الممر من بلوغ مقاطع الأشجار التي لم يتم استغلالها من قبل. وأصبح بالمستطاع فتح مناجم بما يمثله ذلك من توفير مناصب شغل مهمة، بفضل توفر طريق مواصلات لنقل إنتاجها.

خاتمة

لا شك وأن المتمعن في هذا الحدث العملي للتطوع المدني النبيل الذي جسدته « طريق الوحدة « في فجر الاستقلال قد لمس أنه لم يكن مجرد مشروع لتهيئة انطلاقة المغرب نحو وحدته السياسية، ولا لاستنهاض الهمم من أجل تذويب المسافة بين واقع التخلف وأفق التطور فحسب، وإنما ولد مناسبة فريدة لالتحام استراتيجية الفكر بسواعد الشبيبة لتسطير ملحمة من أنصع ملاحم الإخلاص الوطني، وأفردها على المستوى التعبوي الشعبي.

لقد ابتكرت « طريق الوحدة « كخيار تجريبي وكمحك لبلورة التصميم الشعبي كصمام أمان أريد به في لحظته تلقيح البلاد ضد السقوط ثانية في براثين شكل استعماري جديد، وفي مداه كنبراس لمسيرة التحرر الشاملة كما خطط لذلك مبدع المشروع، الشهيد المهدي، في فاتحة المحاضرات (مهمتنا في الحالة الراهنة). ولهذا السبب كان عمقها يتوزع بين نفض الخمول عن الطاقات من أجل تحفيزها على الفعل البناء، وبين تشجيع المعرفة بالواقع في أفق تغييره عمليا، وبين تجذير الفعل الوطني المسؤول دليلا على المواطنة الحقة، مكافحا بهذا العمق كل أشكال التدجيل والتضليل والاتكالية المستشرية إذاك والهادفة إلى الإبقاء على اليأس والإحباط والتخلف.

فقبل أن تكون الطريق مجرد رغبة شعبية لتوحيد المغرب المستقل، كانت ترمي أيضا إلى تأطير وحدة الغايات الجماعية المتمثلة في صيانة مكسب الاستقلال وبناء الوطن، اللذين لن يتأتيا إلا بالانصهار الواعي بين فئات المجتمع وعناصره، وبالدمج العقلاني بين تكويناته المتنوعة رأبا لمحاولات التشطير التي كرسها التخلف والاستعمار. ومن ثم كانت الأهداف العميقة لطريق الوحدة تتجلى بوضوح في تشييد المغرب الحر الجديد، وفي الوقت ذاته المواطن الحر الجديد.

إنها لم تكن مجرد ورش تطوعي ينضح بالإخلاص والتضحية والتطوع، بل كانت مدرسة وطنية نموذجية عول عليها لبعث المواطن المغربي المسؤول والمؤهل

لخلق الأفكار وإطلاق المبادرات وتحقيق الإنجازات المشعة على محيطه البشري والمجالي، بعيدا عن أية إطلاقية، وقريبا من التكاملية الحتمية خدمة لوحدة الأمل والعمل بين القوى الحية الصادقة على اختلاف مواقعها الرسمية أو الشعبية، باعتبارها أسلوبا ثوريا تقدميا ابتدع لقهر الركود والجمود بمقدوره وضع البلد على سكة العمل المتواصل، وبإلقاء المسؤولية على عاتق كل مواطن بما يمتلكه من قدرة على المساهمة في حياته، ومؤسسته، وجماعته المحلية ارتقاء إلى جماعته الوطنية الكبرى.

و قد تبين أن الطاقة الخام الهائلة التي تختزلها فئة الشباب هي المعول عليها لحماية منجزات الاستقلال والرقي بصرح الوطن إلى الآفاق الواعدة، وآمنت برسوخ بقدرتها الاستراتيجية على مغالبة التحديات، واعتبرتها طليعة القوى المراهن عليها من أجل التغيير وغرس روح الانعتاق؛ فكان لا بد – والمغرب في فجر استقلاله – استثمار هذه الطاقة في « طريق الوحدة » كعمل تعاوني تجريبي من أجل اختبارها وتأهيلها لاستكمال مهمة البناء والنماء الاقتصادي والتقدم التقني، وكأسلوب نموذجي يبتغي إنضاج كل مجهود في التربية الأساسية، أي التربية على المواطنة الحقة بكافة أبعادها النبيلة، تلك التربية التي لم يكن يقدر لها أن تتوقف في متم صيف 1957، وإنما كانت الطريق مجرد مشتل كبير لإعمال الفكر ولتشغيل السواعد، كانت بمثابة رحم يفترض أن تتولد عنه طرق وحدة متعددة ومتنوعة بلدية وجماعاتية وإقليمية ووجهوية في كافة ربوع الوطن.

وبالفعل تعددت مبادرات شبيبة طريق الوحدة في أوراش متنوعة بعيد صيف 1957، وتجدد عنفوانها في مشاريع كبرى مثل غابات الشباب، ودروس مكافحة الأمية والتربية الأساسية وغيرها، قبل أن تتعرض هذه الروح للإجهاض وللركون خلف وقع الأحداث السلبية على امتداد عقود ما بعد نهاية الخمسينات، رغم أن أوارها المعنوية والبشرية ظلت مشتعلة تحت الرماد، مستعدة لتبدي حماستها عند أول فرصة تتاح لها ما دام روح الأمل موجودا، وما دامت طاقة الشبيبة متوفرة؛ ولا شك أن الملاحظ المتبصر سيلمس ملامح « الطريق » التنظيمية والتمثيلية شبابيا وإقليميا في حدث « المسيرة الخضراء »، ولا غرابة في ذلك ما دام أن مفجر المسيرة كان على رأس قيادات طريق الوحدة.

إن الانزياح عن نهج « طريق الوحدة » وعبقريتها قد كان يؤرق متتبعيها المعاصرين تبعا لمواكبة درجة الخوف للنادر من الإنجازات، فقد جاء في افتتاحية لجريدة العلم تحت عنوان دال « لا تخيبوهم ! » تحذير نبهت فيه إلى ضرورة إبقاء جذوة روح التعبئة والعمل التطوعي متأججة في نفوس الشباب العائد من مدرسة طريق الوحدة:

« ... هذه الطاقة البنائية المتحفزة يجب ألا تضيع (...)، وهذه الآمال المشرقة يجب ألا تخيب (...). إن في استطاعة الشعب والمسيرين الرسميين خاصة أن يحفروا قبورا يوارون فيها هذه القدوة الواعدة التي انطلقت في نفوس شبابنا، وفي استطاعتهم أيضا، وهم الغيورون على مستقبل هذا الوطن، ألا يخيبوا ظنهم، فيعملوا على توجيههم نحو إنجاز المشاريع التي نحن في حاجة إليها » .

أو لم تشرئب القبور لوأد تلك القدوة الواعدة، ولتقبر معها الآفاق الاستراتيجية العامة التي بذرتها طريق الوحدة، ولتدفع المغرب وشبيبته إلى التيه لأزيد من أربعة عقود عن بناء الوطن الحر الكريم، والمواطن الحر العامل؟

أو لم تنطبق على المغرب تحذيرات الشهيد المهدي من الخيبة المريرة التي قد تصيب الجماهير الشعبية إن أخطأت البلاد طريق تحررها الحقيقية، وها نحن إلى اليوم نجتر الخيبات تلو الخيبات من أمية وعطالة ومخدرات وتنكر للوطن وقوارب موت وعواف الإحباط واليأس والتضليل.

لكنه، وحسب قولة الإسكندر المقدوني « إنه بالأمل وحده تحيى الشعوب !». وبالأمل الذي لا يمكن أن تجسده إلا سواعد الشباب نضع هذا الكتاب بين أيدي شبيبتنا وكل فعاليات القوى الديمقراطية الحية، سواء في مواقعها الرسمية أو في هيئات العمل الجمعوي والشبابي، لا لتمجيد الطلل، وإنما لإعادة استقراء هذه التجربة الفذة الاستقراء الصحيح المأمول، عسى أن يعاد لمبدإ المواطنة الحقة والتنمية البشرية الفعلية صدقيتها وعذريتها وعنفوانها الفاعل، وهو المبدأ الذي نعتقد أنه لن يتأتى إلا باستعادة المقولة العميقة للشهيد المهدي وهو يخطط لمشروع طريق الوحدة:

« إن بلادنا محتاجة إلى كل ما تقدم، ويلزم أن ننهض له جميعا، فتجند الحكومة نفسها لإنجاز قسطها، ونجند نحن أنفسنا لتنفيذ قسطنا (...) وهكذا حتى تبنى دعائم استقلالنا. أما التضليل فلن يؤدي بنا أبدا إلى طريق النجاح «.




NOBEL CREATION
IMPRESSION NUMERIQUE
POUR LES SOUCIEUX DU DETAIL...

نوستالجيا المؤرخ

سيرة العلامة والمؤرخ أ. د. محمد مؤنس عوض



يعد الدكتور محمد مؤنس عوض أحد أساتذة تاريخ العصور الوسطى البارزين, ومن أعلام تاريخ الحروب الصليبية في مصر والعالم العربي.

المولد: الخامس من أكتوبر عام 1956م بمحافظة أسيوط .

بعد أن أتم الدكتور محمد مؤنس دراسته الابتدائية والثانوية إلتحق بكلية الآداب, قسم التاريخ, جامعة عين شمس, ونال درجة الليسانس منها سنة 1978م.

حصل مؤرخنا على درجة الماجستير عن أطروحته «التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية فى القرنين 13-12م/7-6ه», عام 1984م.

ثم نال درجة الدكتوراه والتي كان موضوعها «السياسة الخارجية للدولة النورية (569-541ه/1174-1146م)» عام 1988م.

عمل أ.د. محمد مؤنس معيداً بكلية الآداب قسم التاريخ, جامعة عين شمس, ثم مدرساً مساعداً , فمدرساً , فأستاذاً مساعداً, فأستاذاً . درَّس في العديد من الجامعات المصرية والعربية.

أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في مصر والعالم العربي.

- ُيعد أ. د. مؤنس صاحب مدرسةٍ متميزةٍ في تاريخ الحروب الصليبية، وأحدث ثورة فكرية في هذا التخصص , ويحسب لهذا المؤرخ العلامة أنه اقتحم موضوعات في تاريخ الحروب الصليبية قلما تعرض لها سابقيه.

للأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض, مؤلفات في صورة كتب وبحوث ومقالات (110) عمل علمي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الأتي:

الكتب:

1. علية الجنزوري مؤرخة مصرية رائدة لتاريخ العصور الوسطى, ط.القاهرة 2008م.
2. سامحيني يا أسيوط رحلة إلى عاصمة صعيد مصر بين الزمان والمكان والكتب
3. الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى ط.القاهرة 2004م
4. الإمبراطورية البيزنطية دراسات في تاريخ الأسر الحاكمة ط.القاهرة 2007
5. عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات ط.القاهرة 2007
6. مصر تروي تاريخها .ط.القاهرة 2008م
7. صلاح الدين بين التاريخ والاسطورة ط. القاهرة 2008م
8. الظاهر بيبرس مؤسس دولة سلاطين المماليك في مصر ط. القاهرة 2006م
9. القلاع الصليبية في بلاد الشام في القرنين 13،12. ط. القاهرة 2006م
10. من أعلام الطب في العصور الوسطى ط. القاهرة 2006م.
11. من رحالة الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. القاهرة 2006م
12. فى تاريخ العصور الوسطى (دراسات فى بيزنطة- الحروب الصليبية– الأندلس)، ط. القاهرة 2003 (قام

بتحرير الدراسة).
13. عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات ط.القاهرة 2005م

14. الرحالة الأوروبيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، 1099-1187م. ط. القاهرة 1991م.
15. الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1995م.
16. الملك النرويجى سيجورد ودوره فى دعم الحركة الصليبية 1107- 1111م مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 1995م.م.
17. الزلازل فى بلاد الشام عصرالحروب الصليبية، ط. القاهرة 1996م.
18. فصول ببليوجرافية فى تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة 1996م.
19. فى الصراع الإسلامى الصليبى- معركة أرسوف 1191م/587هـ. ط. القاهرة 1997م.
20. من إسهامات الطب العربى الإسلامى فى العصور الوسطى، ط. القاهرة 1997م.
21. فى الصراع الإسلامى الصليبى، السياسة الخارجية للدولة النورية 1146- 1174م، ط.القاهرة 1998.
22- جامعات العالم الاسلامي مشكلات الواقع ةآفاق المستقبل, مؤتمر معهد وحدة العالم الاسلامي_ ماليزيا عام 2008م.
23. رحلتى إلى أبها، ط. القاهرة 1998م.
24. -الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب فى القرنين 12، 13م /7-6هـ، ط. القاهرة 1999- 2000م.
26. -فى النقد التاريخى، ط. القاهرة 2001م.
27. - الحروب الصليبية، السياسة- المياه- العقيدة، ط. القاهرة 2001م.
28. -سندباد فى عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة 2002م.
29. -إغارات أسراب الجراد وأثرها فى بلاد الشام، عصر الحروب الصليبية- دراسة عن المرحلة من 1114- 1159م. ط. القاهرة 2002م.
30. -الهيئات الدينية الحربية الصليبية فى بلاد الشام فى القرنين 13-12م ، ط. عمان 2003
31. --دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطى) ط. القاهرة 2003م. (قام بتحرير الدراسة)
32. مؤرخون مصريون رواد لمرحلة العصور الوسطى، ط.القاهرة 2006م.
33. الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية ط.لبنان 1999م.
34. كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى الكتاب التذكاري لتكريم أ.د.محمود سعيد عمران، ط. الارسكندرية 2004م
35.
بحوث مطبوعة باللغة الإنجليزية:
HIGHLIGHTS ON MEDICAL CONTRIBUTION OF MUSA IBN MAIMONIDES DURING THE AYYUBID RULE IN EGYPT.
in: M. E. R. J., vol. 12, March 2003
البحوث :
37_ مؤرخون مصريون رواد مرحلة العصور الوسطى ط. القاهرة 2006م
38_ ببليوجرافية الحروب الصليبية – المراجع العربية والمعربة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث 1985م
39_ البستان الجامع مصدراً لتاريخ الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام في القرن 6هـ/ 12م ، ط القاهرة 1982م
40_ تاريخ الطب العربي و مكانة عبداللطيف البغدادي فيه ، بحث في مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب – سوريا، الرقه 1991م
41_ المواجهة السنية الشيعية في بلاد الشام في القرن 6 ه / 12 م من خلال رحلة ابن جبير – ندوة العرب وآسيا، جامعة القاهرة أبريل 1989
42_ الأسواق التجارية فى عهد الدولة النورية، مجلة الدارة السنة (16) العدد 3 عام 1411هـ.
43_ وليم الصورى مؤرخا للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية 1137- 1154م مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 1995م.
44_ أضواء على الطب فى المناطق الصليبية 1098- 1174م مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 1995م.
45_ العظيمي الحلبي مصدراً لتاريخ بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، مركز بحوث الشرق الأوسط – جامعة عين شمس عام 1998م
46_ دراسة نقدية لرسالة السيوطى كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة.ط.القاهرة 1998م
47_ -أضواء على مستعمرة البيرة الصليبية، . مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 2002م.م.
48_ الأسماك فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية-

دراسة فى التاريخ الإقتصادى والإجتماعى. ط. القاهرة 2002م.

49_ -الإضطهادات الصليبية لليهود فى حوض الراين بألمانيا عام 1097م.، دراسة تطبيقية على

50_ حولية الربى أليعازر بار ناتان. مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 2002

51_ -عوامل إخفاق المشروع الصليبى على الشرق الأدنى فى أخريات القرن 13م /7هـ ، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 2002م.

52_ -دور عنصر المياه فى تاريخ الصليبيين من -1098 1187م. . مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس 2002م.

53_ حسن حبشي مؤرخاً رائداً للعصور الوسطى « سمنار العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى كلية الآداب – جامعة عين شمس عام 2005م

54_ أحمد فؤاد سيد مؤرخاً لمصر الإسلامية سمنار العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى كلية الآداب – جامعة عين شمس 2005م.

55_ فصول من تاريخ الحروب الصليبية لسيتون بالاشتراك مع د.سعيد البيشاوي. ط. عمان 2005م

56_ الحروب الصليبية حاجز بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ونتائجها – مؤتمر معهد وحدة العالم الإسلامي – ماليزيا عالم 2006م

57_ «الدور النضالي للمرأة الفلسطينية في مواجهة العدوان الصهيوني» مؤتمر معهد وحدة العالم الإسلامي- ماليزيا عام 2007م

58_ 820 عاماً على معركة حطين- المنبر الجامعي العدد (48) مايو 2007م

59_ انتشار الإسلام في صفوف الصليبيين في بلاد الشام بين القرنين 12، 13م- المنبر الجامعي العدد (49) سبتمبر 2007

60_ صلاح الدين الأيوبي والحملة الصليبية الثالثة – المنبر الجامعي نوفمبر 2007م

61_ (1204-1171م) مرحلة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية شرقي البحر المتوسط وشرقي أوروبا. ندوة العرب والتحديات الخارجية عبر العصور – كلية الآداب-جامعة القاهرة 2007م

62_ النقد الاجتماعي من خلال كتابات وليم الصوري أبو شامه المقدسي، دراسة في التاريخ المقارن لعصر الحروب الصليبية ندوة إتحاد المؤرخين العرب عن دراسات التاريخ الاجتماعي للوطن العربي عبر العصور . القاهرة 2008م

63_ جامعات العالم الإسلامي مشكلات الواقع وآفاق المستقبل مؤتمر معهد وحدة العالم الإسلامي- ماليزيا عام 2008م

64_ الحركة الصوفية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطى) تكريماً للأستاذ الدكتور إسحاق عبيد ط. القاهرة 2004م.

65_ فكرة الجهاد الإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.

66_ أضواء على تاريخ موارنة لبنان عصر الحروب الصليبية ضمن كتاب بحوث في تاريخ العصور الوسطى تكريما للأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم ، ط القاهرة 2004م

67_ موقف المؤرخين الأقباط من الحركة الصليبية- نماذج مختارة مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط – جامعة عين شمس عدد مارس 2008م.

68_ رحلتا ابن جبير (1217ت) وبوركها رد من جبل صهيون (ت بعد 1283م) في بلاد الشام – دراسة مقارنة مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط – عين شمس عدد مارس 2008م

69_ صلاح الدين الأيوبي – مجلة الخفجي عام 1995م

70_ الصليبيون يتعلمون الطب العربي في بلاد الشام في القرن 12م (المنبر الجامعي عدد فبراير 2008م)

71_ صلاح الدين الايوبي والحملة الصليبية الثالثة, المنبر الجامعي نوفمبر 2007م.

72_ الحروب الصليبية كحركة استعمارية ودراسة لرؤية جمال حمدان(1995-1928), مجلة بحوث الشرق الأوسط , العدد 27, سبتمبر 2009.

73_ « رءوف عباس (2008-1939م) فارس بورسعيد يترجل من جواده للابد ضمن الكتاب التذكاري التكريمي الصادر عن الجمعية التاريخية المصرية, ط.القاهرة 2009م.

74_ وصية صلاح الدين الأيوبي (ت1193م) لابنه الظاهر غازي -دراسة تحليلية. مجلة بحوث الشرق الاوسط- مركز بحوث لشرق الاوسط- جامعة عين شمس عدد سبتمبر 2009م.

75_ صلح الرملة 1192 واتفاقية يافا 1229م دراسة مقارنة في التاريخ الدبلوماسي للدولة الأيوبية. بحث معد للاشتراك به في مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب 2009م بالقاهرة.

76_ نور الدين محمود (1174-1146م) بطل من عصر الحروب الصليبية» مجلة الوعي التاريخي العدد (5), مارس 2009م.

77_ ليلي عبد\ الجواد مؤرخة مصرية رائدة لتاريخ العصور الوسطى. الحفل التأبيني 14/3/2009م بجامعة

القاهرة.
78_ العصر العباسي الأول كتاب صوتي من إخراج جراند حيات القاهرة 2009م.
79_ عرض كتاب محمد المقدم : الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية, ط.القاهرة 2009م, الوعي التاريخي العدد (6) أبريل 2009م.
-80 عرض كتاب صفاء عثمان : مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني (1118-1131م). ط.القاهرة 2008م, الوعي التاريخي العدد (6) أبريل 2009م.
81_ حسام الدين لؤلؤ قائد بحري من العصر الايوبي-دراسة لدوره في عصر الحروب الصليبية.
82_ عادل غنيم, نهر العطاء المتجدد. ضمن الكتاب التذكاري لتكريمه. ط.القاهرة 2004م.
83_ 60 عاما على سرقة فلسطين والجريمة لاتزال مستمرة – المنبر الجامعي, عدد سبتمبر 2008م.
84_ الحروب الصليبية كحركة استعمارية دراسة لرؤية جمال حمدان (1928-1995م) مجلة بحوث الشرق الأوسط, العدد (27), سبتمبر 2010م.
85_ رؤية مارونية لتاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام في القرنين 12-13م, مجلة بحوث الشرق الأوسط العدد (27) سبتمبر 2010م.
86_ محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) رسول الانقاذ الإلهي للبشرية (تحت الطبع).
87_ الإسلام نور وهداية (تحت الطبع).
88_ تونس الخضراء تروي تاريخها (تحت الطبع)
89_ الفندلاوي والحلحولي بطلان شعبيان في عصر الحروب الصليبية. ضمن الكتاب التذكاري لتكريم أ.د. حسنين ربيع, ط.القاهرة 2009م.
90_ . مؤرخ إسرائيلي يعترف بالمذابح الإسرائيلية ضد الفلسطينيين عام 1948م, المنبر الجامعي, عدد فبراير 2008م.

ولا زال عطاء مؤرخنا متواصلاً....



ترقبوا العدد الثامن من مجلة المؤرخ الالكترونية

عدد مميز

وخاص جدا

بدعم وشراكة من المجلس الجالية المغربية بالخارج

المملكة المغربية
ROYAUME DU MAROC
ccme
مجلس الجالية المغربية بالخارج
CONSEIL DE LA COMMUNAUTÉ MAROCAINE À L'ÉTRANGER

موضوع العدد : تاريخ الهجرة المغربية والمغاربية نحو الخارج

لإرسال مساهماتكم في نفس الموضوع لا تترددوا بمراسلتنا على الاميل التالي قبل 15 ماي 2010 :

magazine.histoire@yahoo.com

بالابيض الاسود

برج البحر بأسفي بالابيض والاسود القاتم





دراسات

الدعاية الموحدية
قراءة في رواية ابن القطان للقاء ابن تومرت و الغزالي

هذه بضع خواطر و أراء حول الدعاية الموحدية من خلال رواية ابن القطان للقاء ابن تومرت بالغزالي. هذا الموضوع ظهرت بوادره في الفترة الوسيطية و لقد صال فيه البحث التاريخي الحديث و جال بدون الوصول إلى نتيجة قطعية تشفي الغليل. و ليس غرضنا في هذه العجالة العودة لتمحيص ما كتب فهذا لا يفيد أدنى شئ إنما محاولتنا البسيطة هذه هي دراسة سرد ابن القطان و بعض النصوص الاخرى) تنقل عن مؤلفنا و معروفة عند الباحثين (تمكننا من إلقاء مزيد من الضوء حول هذه الحادثة/ اللقاء وإرجاعها إلى نصابها التاريخي.

النصوص

رواية ابن القطان(1)

« و عندي في ذلك حكاية طريفة, وهي هذه: اخبرني الشيخ الفقيه ابو محمد عبد الله بن رحمن [كذا] العراقي رحمه الله تعالى عن بعض اشياخه قال :

اخبرني الحاج الصالح المسن فلان من اهل فاس قال : كنت في حلقة ابي حامد الغزالي رحمه الله تعالى التي حلقها للتدريس. فجاء ذات يوم رجل كث اللحية على رأسه كرزي صوف وهو محتب بكساء. فدخل المدرسة و حياها بالركعتين ثم اقبل إلى الشيخ أبي حامد رحمه الله تعالى فسلم عليه, فقال له : من الرجل ؟ فقال رجل من أهل المغرب الأقصى. فقال له : دخلت قرطبة ؟ قال نعم. قال : فما فعل فقهاؤها و كيف حال إخواننا في الله تعالى ؟ قال بخير, قال : هل انتهى اليهم كتاب الإحياء ؟ قال : نعم, قال فماذا قالوا عنه ؟ فوجم الرجل و خجل ولازم الصمت حياء. فعزم عليه الشيخ ليقولن ما طرأ فقال انه قبيح ايها الامام! فاشتددت عزيمته عليه في ان يقول ما طرأ فقال له : القوم جهال مقلدون لم يعرفوا قدره. ورفعوا الى سلطان العدوة و الاندلس في شأنه و انه ينبغي أن يحرق فامر باحراقه, فجمعت النسخ في البلاد منه, واحرقت في كل بلد.

قال : فتغير وجه ابي حامد و مد يديه للدعاء و الطلبة يؤمنون , فقال في دعائه : اللهم مزق ملكهم كما مزقوه و اذهب دولتهم كما حرقوه ! فقام رجل من الحلقة كان يقال له في ذلك الوقت أبو عبد الله السوسي فقال : أدع الله أيها الامام ان يجعل ذلك على يدي , فتغافل عنه أبو حامد رحمه الله تعالى. فلما كان بعد جمعة أو نحوها اذا بشيخ [اخر على شكل الاول , فساله ابو حامد , فاخبره بصحة الخبر المتقدم. فدعا بمثل دعائه الاول , فقال له المهدي : على يدي ان شاء الله , فقال : اللهم اجعله على يده ! فقبل الله دعاءه. فخرج أبو عبد الله ابن تومرت من بغداذ و صار الى المغرب , وقد علم ان دعوة الله لا ترد] ,

رواية الونشريسي نقلا عن ابن القطان (2)

« فذكر ابن القطان في كتابه المسمى بنظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان ... عن عبد الله بن عبد الرحمان العراقي شيخ مسن من سكان فاس قال : كنت ببغداد بمدينة أبي حامد الغزالي فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزي صوف, فدخل المدرسة و حياها بالركعتين ثم اقبل على الشيخ أبي حامد فسلم

عليه فقال : فمن الرجل ؟ قال من أهل المغرب الأقصى. قال : دخلت قرطبة ؟ قال نعم. قال فما حال فقهائها: قال بخير, قال: هل بلغهم الإحياء ؟ قال : نعم, قال فماذا قالوا فيه ؟ فلزم الرجل الصمت حياء منه, فعزم عليه ليقولن ما طرأ, فاخبره بإحراقه و بالقصة كما جرت, قال فتغير وجه الشيخ أبي حامد و مد يده إلى الدعاء و الطلبة يؤمنون فقال : اللهم مزق ملكهم كما مزقوه و أذهب دولتهم كما احرقوه فقام محمد بن تومرت السوسي الملقب بعد بالمهدي عند قيامه على المرابطين فقال له : أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدي ! فتغافل عنه أبو حامد [بثر] فاخبره بمثل الخبر المتقدم. فتغير و دعا بمثل دعائه الأول. فقال له المهدي : على يدي, فقال : اخرج يا شيطان سيجعل الله ذلك على يدك. فقبل الله دعاءه. و خرج محمد بن تومرت من هناك إلى المغرب برسم تحريك الفتن و قد علم أن دعوة ذلك الشيخ لا ترد « .

رواية ابن عذاري نقلا عن ابن القطان (3)

« وذكر ابن القطان ايضا عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس من اثبت في مدرسة ابي حامد فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف ودخل للمدرسة و حياها بالركعتين ثم دخل إلى الشيخ أبي حامد فسلم عليه, فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المغرب الأقصى. فقال له : دخلت قرطبة ؟ قال نعم. قال : فما فعل فقهاؤها ؟ قال في خير, قال : هل انتهى اليهم كتاب الإحياء ؟ قال : نعم, قال فماذا قالوا فيه ؟ فلزم الرجل الصمت حياء منه. فعزم عليه ليقولن ما طرأ, فاخبره باحراقه و بالقصة كما جرت. قال : فتغير وجه الشيخ ابي حامد و مد يديه الى الدعاء و الطلبة يؤمنون , فقال : اللهم مزق ملكهم كما مزقوه و اذهب دعوتهم كما حرقوه !

فقام المهدي فقال : ايها الامام ادع الله تعالى ان يجعل ذلك على يدي, فتغافل عنه أبو حامد. فلما كان بعد وقت اذا بشيخ اخر على شكل الاول , فقال له ابو حامد [كذا] , فاخبره بالخبر المتقدم, فتغير ودعا بمثل دعائه الاول , فقال له المهدي : على يدي, فقال له : على يدك ! فقبل الله دعاءه».

رواية الحلل الموشية نقلا عن ابن صاحب الصلاة (4)

« و حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس, قال : كنت ببغداد بمدرسة الشيخ الامام ابي حامد الغزالي, فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف, فدخل المدرسة, و اقبل على الشيخ أبي حامد, فسلم عليه, فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المغرب الأقصى. قال : ادخلت قرطبة ؟ قال نعم. قال : كيف فقهاؤها ؟ قال بخير, قال : هل بلغهم كتاب الإحياء ؟ قال : نعم, قال فماذا قالوا فيه ؟ فصمت الرجل حياء. فعزم عليه ليقولن, فاطرق راسه واخبره باحراقه و بالقصة كما جرت. قال : فتغير وجهه و مد يديه للدعاء و الطلبة يؤمنون عليه , فقال : اللهم مزق ملكهم كما مزقوه و اذهب دولتهم كما احرقوه !

فقال له ابو عبد الله بن تومرت السوسي الملقب بالمهدي : ايها الامام ادع الله ان يجعل ذلك على يدي, فتغافل عنه. فلما كان بعد ايام اتى الحلقة شيخ اخر على شكل الاول , فساله الشيخ ابو حامد , فاخبره بصحة الخبر المتقدم, فدعا بمثل دعائه الاول , فقال له المهدي : على يدي ان شاء الله, فقال : اللهم اجعله على يديه ! فقبل الله دعاءه.وخرج أبو عبد الله بن تومرت من بغذاد و صار الى المغرب , وقد علم ان دعوة الشيخ لا ترد « .

التحليل

لعل اول ما تجب الاشارة اليه ولم يتنبه اليه احد من الباحثين هو هذا البثر(ما بين معقوفين بالاحمر) الذي وقع في رواية ابن القطان. لقد حاول محقق الكتاب الاستاذ الجليل محمود مكي تقويم النص اعتمادا على رواية الحلل الموشية لكنه وقع في خطأ كرونولوجي (anachronisme) واضح و جر معه بالتالي بقية الباحثين. فصاحب الحلل يصرح بالنقل عن ابن صاحب الصلاة و ليس عن

ابن القطان و كان حريا بالاستاذ مكي ان يقوم النص اعتمادا على رواية ابن عذاري او الونشريسي.

تتضمن رواية الونشريسي, المنقولة عن ابن القطان, هي الاخرى بثرا واضحا بالرغم من ان محقق الكتاب الاستاذ الكبير محمد حجي لم يتنبه اليه. الا ان الغريب هو كون هذا النقص يشبه الى حد كبير النقص الموجود برواية ابن القطان. فالواضح ان الونشريسي نقل من نسخة ابن القطان المبثورة و ربما تلك التي قام بتحقيقها الاستاذ مكي. لكن كيف تمكن صاحب المعيار من تقويم روايته و على من اعتمد في ذلك ؟ سؤال تصعب الاجابة عليه ويبقى محتفظا بلغزه الى حين العثور على مصادر اخرى.

تشير كل القرائن التاريخية الى ان مصدر هذه الروايات هو ابن القطان ما عدا صاحب الحلل الموشية الذي يؤكد انه ينقل عن ابن صاحب الصلاة. و لم تعر الدراسات الحديثة أي اهتمام بهذه المسالة و اعتبرتها من «باب تحصيل الحاصل».

ولنا ان نتساءل : ما مصدر هذه الحكاية ؟ هل هذه الدعاية الموحدية بدات فقط مع ابن القطان ام هي اقدم منه ؟ و ما دور ابن القطان فيها ؟

يعد صاحب الحلل الموشية المصدر الوحيد الذي يصرح بالنقل عن ابن صاحب الصلاة, الا ان روايته تشبه الى حد بعيد ما جاء في الروايات الاخدة عن ابن القطان. فهلا يكون مؤرخنا قد اخطأ فقط في احالته ؟

عند الرجوع الى مصدرنا نجد في باب « ذكر ظهور المهدي و ابتداء أمره « ان صاحب الحلل ينقل و بالتصريح نسب الامام المهدي عن ابن القطان (الذي حققه) ثم ابن صاحب الصلاة (الذي اختصره), اما بداية رحلته المشرقية فعن ابن القطان. وينتقل بعد ذلك الى قضية احراق الاحياء على يد ابن حمدين نقلا عن ابن القطان في سبع اسطر. ثم يتحول الى النقل عن ابن صاحب الصلاة في قضيتنا هذه. و من هنا اعتقد ان مؤلفنا لم يقع في خطأ كما يمكن ان يتبادر الى الذهن في اول الامر وانه كان على صواب في احالته.

ان لم تفد هذه فلنعد الى مصدر اخر عاش مؤلفه قبيل عصر ابن القطان اعني به عبد الواحد المراكشي مؤلف كتاب « المعجب في تلخيص اخبار المغرب «. يقول : « و حكي أنه ذكر للغزالي ما فعل امير المسلمين بكتبه التي وصلت الى المغرب, من احراقها و افسادها, و ابن تومرت حاضر ذلك المجلس, فقال الغزالي حين بلغه ذلك : ليذهبن عن قليل ملكه, و ليقتلن ولده, وما احسب المتولي لذلك الا حاضرا مجلسنا ! « و كان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه « (5).

فالحكاية هذه على قصرها تنطوي على الخطوط العريضة التي وجدناها في سياق رواية ابن القطان للحدث (الغزالي, عملية احراق, اعلام بالقصة, دعاء على امير المسلمين, حضور ابن تومرت بالمجلس ...) لكن بالرغم من هذا فسرد الحكاية لا تظهر عليه الحبكة القصصية كما هي واضحة عند ابن القطان. فالراجح ادن هو ان هذه الدعاية الموحدية كانت رائجة و متداولة في صيغة اولية قبل ان يتلقفها ابن القطان و يصيغها في قالب ملحمي حذثاني رائع,

وفي نفس السياق وابان كتابتي لهذه الاسطر تذكرت ما قاله صاحب « بيوتات فاس الكبرى « حول احراق الاحياء فعدت اليه فكانت مفاجأة سارة على الاقل من جانبين : اولا نحن امام نفس القصة لكن بسرد مخالف و الاهم هو كون النقل ليس عن ابن القطان ولكن اغلب الظن عن اليسع صاحب كتاب « المغرب في اخبار محاسن اهل المغرب «.

يقول صاحب « بيوتات فاس الكبرى « : « وزعم بعضهم ان سبب انقراض دولة لمتونة هو دعوة

ابي حامد الغزالي عليهم , و ذلك أنه لما الف كتابه المسمى بالاحياء وجه به الى جامع قرطبة, فلما وصلها تكلم فيه فقهاء قرطبة لما فيه من الاحاديث الموضوعة التي لا اصل لها, و قالوا هذا الكتاب يغر المسلمين, الصواب احراقه, فاتفق علماء قرطبة على احراقه فاحرقوه بقرطبة, و اما قاضيها ابن حمدين فقال بكفر مؤلفه, ثم كتب علماء قرطبة الى علي بن يوسف يامرونه بان يامر باحراقه في جميع بلاد الاندلس و المغرب. فلما بلغه كتاب علماء قرطبة و اتفاقهم على احراق كتاب الاحياء للغزالي امر باحراقه في كافة بلاد المغرب و الاندلس, فبلغ خبره الى ابي حامد الغزالي ببغذاد, ثم ان رجلا من اهل قرطبة قدم بغذاد فساله الغزالي عن احراق كتابه بقرطبة فاخبره بما قالوا في كتابه و بمن قال بكفره او بتمزيقه و احراقه ببلاد المغرب, فرفع يده للدعاء وقال : اللهم مزق ملكهم كما مزقوه و اذهب دولتهم كما احرقوه و ملك قرطبة للكفار كما قال قاضيها بكفري, فقال المهدي و كان في المجلس في درس ابي حامد الغزالي على يدي ؟ فقال الغزالي على يدك. فزعم الموحدون ان اخذ قرطبة من ايدي المسلمين و غلبة النصارى عليها بسبب دعاء الغزالي عليهم و كذلك دولة لمتونة بسبب دعائه عليهم » (6)

و خلاصة القول يبدو جليا ان هذه القصة/الدعاية كانت قد ظهرت للوجود في وقت مبكر من عمر الدعوة الموحدية ربما في قالب بسيط , و عندما بدأ نجم الدولة بالافول راى مؤلفنا ابن القطان ضرورة نفخ الروح فيها واعادتها على مسرح الاحداث (لا ننسى ان المؤلف كان يكتب للمرتضى الخليفة ما قبل الاخير في السلالة الموحدية, هذا الخليفة الذي اعاد للاشياخ الموحدين و للمهدوية اعتبارها بعد النكبة التي عرفوها ابان حكم الخليفة المامون)

لعل اهم دور قام به ابن القطان هو كونه اوجد بل خلق لهذه الحكاية اصلا بعد ان كانت مجهولة الهوية. فروايته جاءت [و هذه اول الفرضيات او القراءات] اخبارا عن الفقيه ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن العراقي عن بعض اشياخه عن حاج مسن من اهل فاس. ولم يتمكن البحث التاريخي من التعرف على احد في هذا السند. الا ان الغريب هو كون جل الروايات اللاحقة (الونشريسي، الحلل و حتى ابن عذاري المعروف بتمحيصه لاخباره) اختزلت السند و اضحى معه بالتالي الراوي عبد الله بن عبد الرحمن العراقي و كانه بطل الرواية الذي عاين ما وقع في مجلس الغزالي.

ان الفرضية الثانية او قراءة مغايرة لنص ابن القطان تعطينا انطباعا بان هناك نقص او خلل في بدايته، و لعل هذا الارتباك في السند هو الذي دفع بمحقق الكتاب الاستاذ علي مكي الى ان يكتب الرواية كمايلي :

« اخبرني الشيخ الفقيه ابو محمد عبد الله بن رحمن [كذا] العراقي رحمه الله تعالى عن بعض اشياخه قال : [ربما نقص]
اخبرني الحاج الصالح المسن فلان من اهل فاس قال : كنت في حلقة ابي حامد الغزالي ».

فهناك حكاية يرويها ابن القطان اخبارا عن الفقيه ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن العراقي عن بعض اشياخه ولا نعرف محتواها نظرا لوجود [ربما] خرم في الكتاب. ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك الى رواية اخرى اخبارا عن « الحاج الصالح المسن فلان من اهل فاس » و من هنا يمكن ان نفهم عبارتي اخبرني في اول السرد.
فغرابة الرواية او الارباك و التشويش الذي الحقه سندها هو لا محالة السبب الذي جعل الاخباريون والمؤرخون اللاحقون يعزفون عن نقلها بهذه الصورة و يذكرون فقط راويها الاول عبد الله بن عبد الرحمن العراقي و كانه حضر مجلس ابي حامد الغزالي, و هذا ما لم تصرح به قطعا رواية ابن القطان.

تأتي رواية ابن الاحمر صاحب « بيوتات فاس

الكبرى» بالرغم من بعدها زمنيا عن الحدث لتلقي مزيدا من الضوء على تفاصيل هذا اللقاء. فهذه الرواية تحتضن توابث القصة كما هي عند بقية المؤرخين، الا ان سردها يظل فريدا في بعض الجوانب.

عند قراءتي للروايات الاربع السابقة, كنت دائما أتساءل عن مغزى سؤال الغزالي للرجل القادم من المغرب الاقصى اذا كان مر على قرطبة ؟ و الاعجب من ذلك هذا السؤال الوارد في الرواية الاصل (رواية ابن القطان) : فما فعل فقهاؤها و كيف حال إخواننا في الله تعالى ؟
للاشارة فقط التساؤل الاخير ثم حدفه أو تغييره في جل الروايات التالية ما عدا ابن عذاري الذي اختصره، هكذا نجد مثلا : كيف فقهاؤها ؟ كما عند الحلل الموشية او فما حال فقهائها ؟ كما عند الونشريسي.

ان رواية ابن الاحمر تميط اللثام عن خلفية هذه التساؤلات، فالغزالي كان قد وجه نسخة من مؤلفه « الاحياء « الى فقهاء جامع قرطبة للادلاء برايهم فيه و كان قد بلغه ردهم العنيف ضده و ان قاضيهم « ابن حمدين قال بكفر مؤلفه «. ثم كان وصول هذا الشخص من اهل قرطبة الذي اكد مصداقية الخبر. وهنا نلاحظ ان اللقاء بين الغزالي و هذا الشخص كان عفويا و بسيطا بعيدا عن التنميق و الهالة التي احاطه بها ابن القطان و من سار على منواله. اما باقي الحكاية من انتظار بضعة ايام و وصول مخبر جديد من قرطبة فلا وجود له في روايتنا، مما يجعلها اقرب الى التصديق من سابقتها. تنتهي كل الروايات بدعاء الغزالي وان اختلفت في صياغته، كما اختلفت في تنبؤات الحادثة أكانت بايعاز من ابن تومرت أم جاءت عفوية من قبل الغزالي.

أخيرا لابد من الاشارة الى ظهور على غرار حكاية ابن القطان الدعائية هذه ملحمات اخرى أقل رواجا تحاول كلها اثبات اما لقاء الغزالي بابن تومرت كما هو الامر عند الزركشي او التنبأ بمهدوية الزعيم الموحدي كما هو الحال عند أبي محلي (ورقات من مخطوط خاص بحوزتي ننشره قريبا). و بالتالي اضفاء الشرعية على الحركة الموحدية.

الهوامش

1. ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان , تحقيق محمود علي مكي , بيروت , دار الغرب الاسلامي , 1990.ص 72.
2. الونشريسي : المعيار المغرب ، تحقيق محمد حجي، الرباط، وزارة الاوقاف و الشؤون الاسلامية، 1981، ج 12، ص 186.
3. ابن عذاري : البيان المغرب في اخبار الاندلس و المغرب , الجزء 4, تحقيق احسان عباس, بيروت, دار الثقافة, 1998، ص 59.
4. مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية , تحقيق سهيل زكار و عبد القادر زمامة , البيضاء , دار الرشاد الحديثة , 1979. ص104.
5. عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب , تحقيق محمد سعيد العريلن و محمد العربي العلميى , البيضاء, دار الكتاب, 1978.ص 263.
6. ابن الاحمر : بيوتات فاس الكبرى , الرباط, دار المنصور للطباعة و الوراقة, 1972، ث 34.

متفرقات

زطاط عبد الأحد السبتي بمعرض الكتاب



بحضور كوكبة من الاساتذة الافاضل (الاستاذ محمد حبيدة الاستاذ أحمد أبو الحسن ، الاستاذ محمد كنبيب، عبد الرحمان المؤدن) تم بالمعرض الدولي للكتاب بمدينة الدار البيضاء تقديم كتاب بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق بالمغرب ما قبل الاستعمار» للمؤرخ الكبير الاستاذ عبد الأحد السبتي .

الكتاب الذي صدر عن دار توبقال للنشر ضمن سلسلة «المعرفة التاريخية» والكتاب ، الذي أهداه مؤلفه «إلى روح الأستاذ محمد المنوني .. تقديرا للإنسان وللباحث»، هو في الأصل أطروحة جامعية أعدها الباحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، وتمت مناقشتها بتاريخ 9 فبراير 2005 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط .ويوضح عبد الأحد السبتي أن الكتاب يسعى إلى محاورة ملف القرن التاسع عشر بواسطة المكتسبات التي حققها البحث الذي أنجز حول الحقب السابقة، ويهتم في مستوى آخر بمواطن التمفصل بين الممارسات الاجتماعية والتصورات، ولذلك لن يتعامل مع التاريخيات (الإسطوغرافيا) كمتن من المعطيات التي يتجاوزها المؤرخ حين يتاح له الوصول إلى الوثائق، بل فضل أن يسائل المضامين الثقافية للنصوص . وينقسم الكتاب إلى خمسة فصول هي «الزطاطة وآليات الحماية» (التدبير القبلي، الخفر والقوى الدينية، التدبير المخزني، تعارض الأدوار)، و»النظام والاختلال» (سياسات وأحكام، والمرحلة الموحدية-المرينية، المرحلة العلوية)، و»مناقب ومواقع» (الكرامة ونفي إكراهات المجال، الكرامة ومواجهة مشاق السفر، الرمز وفعاليته، الاجتماعية)، و»حدود وأوفاق» (أوفاق الحماية، والزطاطة بين العرف والفقه، وثمن الجاه)، و»حصيلة وامتدادات» (المجال والتراب، زمن المجال، روافد المؤسسة، التعبير ومسالك الدلالة) فضلا عن خلاصات مرحلية وفهارس (خرائط وأعلام جغرافية وبشرية ومصطلحات ومؤسسات وبيبليوغرافيا).

يندرج كتاب المؤرخ المغربي عبد الأحد السبتي، الصادر حديثا عن دار توبقال للنشر بعنوان «بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق بالمغرب ما قبل الاستعمار»، ضمن مشروع فكري يمتد على مدى أكثر من عقدين من الزمن.
ويسعى من خلاله السبتي إلى البحث في تاريخ المغرب وتجديد فهمه بالاستناد إلى ثلاثة أمور رئيسية: أولا، متابعة الإنتاج الإسطوغرافي المعاصر في الجامعات المغربية، متابعة كمية وتحليلية في الآن نفسه، والإنتاج الإسطوغرافي التقليدي، الذي اشتغل عليه منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي في دراسة حول الأدبيات الجينيالوجية. ثانيا، الاشتغال على مدة زمنية طويلة، تمتد من الحقبة المسماة بالعصر الوسيط، إلى الزمن الراهن، مرورا بمرحلة ما قبل الاستعمار ومرحلة الحماية. وثالثا، تتبع نتائج أبحاث العلوم الاجتماعية، وبالأخص الأنثروبولوجيا، وأيضا تتبع إبداعات الفاعلين في ميادين معرفية أخرى، وبالخصوص في ميدان الأدب.
ويلاحظ المتتبع لأعمال عبد الأحد السبتي، وهي كثيرة، أن همه المعرفي الرئيسي، هو تفكيك الكتابة التاريخية المغربية وكشف مواطن الانحباس فيها، وإخراجها من الأنفاق الإسطوغرافية، نفق تقديس النصوص، أو المقاربة الأرشيفية الصرفة، نفق الرد على الكتابات الاستعمارية، نفق الاقتصار على الأبحاث المرتبطة بالشهادات الجامعية.
تموضع كتاب عبد الأحد السبتي، الذي هو في الأصل أطروحة دكتوراه الدولة ناقشها السبتي عام 2005 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، في سياق تجاوز الإسطوغرافية الجامعية على النحو الذي تظهر به في الدراسات الأساسية من رسائل وأطروحات ذات البناء التقليدي، وإخراج البحث التاريخي من التناول المعطياتي، والتناول الأرشيفي، والتناول الوطني، وفتحه على التفسير، وذلك بالتنبه إلى قضية المجال كإشكالية رئيسية، واستثمار مفاهيم جغرافية وأنثروبولوجية لرصد بنيات المغرب قبل الاستعمار، أي تلك التي ورثها منذ العصر الوسيط، على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وهذا التموضع يتخذ من التركيب إطارا للدراسة.
وفي واقع الأمر، إن عملية التركيب هذه هي التي مكنته من فتح أفق عريض من الوجهة المعرفية، وجعلت الكتاب، برأي المهتمين، يحتل مكانة أساسية، ليس فقط في حقل التاريخ، وإنما أيضا في حقول معرفية أخرى، وفي طليعتها الأنثروبولوجيا، والجغرافيا.
وفي هذا السياق نستحضر ما قاله المؤرخ الفرنسي مارك بلوك (Marc Bloch) عندما تحدث عن التركيب التاريخي، كونه يسدي خدمات أهم من الكثير من المونوغرافيات، وأيضا كونه يمنح للتاريخ مكانة بارزة بين العلوم الاجتماعية. فإذا كانت المونوغرافيات تمنح إمكانية فهم القضايا المحلية، ومن ثمة الأخذ بالأدوات الضرورية لفهم القضايا ذات البعد المجالي الأكثر سعة، فإن المنحى التركيبي يبقى ذا فائدة معرفية كبيرة لأنه يوسع منظار المؤرخ، ويحفزه على مراجعة المسلمات وصياغة الفرضيات وتغيير مسارات الفهم والتأويل، ومن ثمة توجيه الدراسات.



ولعل التمفصل الرئيسي لهذا التركيب يتجلى في معالجة إشكالية التاريخ الاجتماعي للمغرب، عبر موضوع تنجذب حوله قضايا كبرى، وتظهر فيه التقاطعات الاجتماعية والسياسية والثقافية.
لقد ركز عبد الأحد السبتي على ظاهرة اجتماعية، هي «الزطاطة»، لكتابة تاريخ اجتماعي تنعكس فيه التمفصلات المهيكلة للبناء الاجتماعي: المعرفة والسلطة، والمادي والرمزي، والمركز والهامش، وحددَ، في المنطلق، دلالاتها التاريخية والاجتماعية. فالزطاطة تعني في الأصل، إلى حدود التدخل الاستعماري في المغرب «ما يؤديه المسافر لمن يخفره، ويحميه في الطرق غير الآمنة التي يرتادها اللصوص والقطاع»، لكنها دلالة متغيرة في الزمن. فهي مؤسسة اجتماعية وسياسية ذات أساس تاريخي، وذات امتداد اجتماعي أيضا، من حيث الدلالة الاستعارية.
فبعد الاستقلال، وبفضل «عملية استعارية تنتمي إلى معجم الرشوة» نجت الكلمة من الضياع، ودخلت في نسق معجمي يحيل على ممارسات يومية، إدارية - مخزنية بالدرجة الأولى، على ظاهرة اجتماعية، على سلوك ثقافي، أو يحيل إلى استعمال عامي يستند إلى «الخبرة العملية، والقدرة على إيجاد المخرج المناسب في الظروف الصعبة»، وهذه الدلالات العامية قد نلتقي بها أحيانا حتى في الخطاب الصحفي والسياسي.



ومن خلال مفهوم «الظاهرة الاجتماعية الكلية»، الذي صاغه عالم الاجتماع الفرنسي مارسيل موس (Ma-cel Mauss)، والقائمة على أساس تناسب ثلاثي الأبعاد، سوسيولوجي تزامني، وتاريخي تعاقبي، وفيزيو-سيكولوجي، تناول عبد الأحد السبتي قضية الزطاطة هذه التي تعبئ في آن واحد كامل المجتمع ومؤسساته. «فهي تكشف أساليب مختلف أنواع المؤسسات الدينية والقانونية والأخلاقية، وهي في آن واحد مؤسسات سياسية وعائلية. هذا إلى جانب المؤسسات الاقتصادية التي تفترض أشكالا خاصة من الإنتاج والاستهلاك، والظواهر الجمالية التي تنتجها هذه الوقائع والظواهر المورفولوجية التي تعبر عنها هذه المؤسسات».

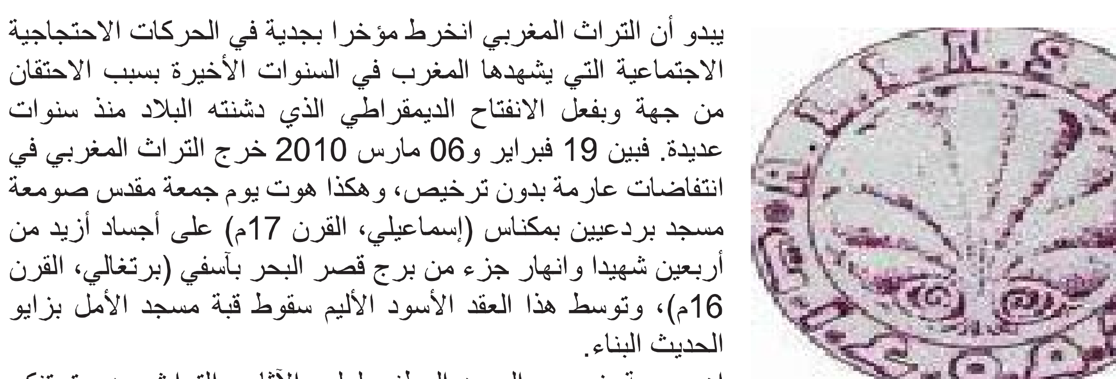
إن ما يترقبه قارئ التاريخ من المؤرخ، سواء كان هذا القارئ محترفا أو مستنيرا، هو تفكيك الماضي وإشراكه في فهم هذا الماضي عبر موضوعات تتقاطع فيها القضايا والأسئلة، وتتعدد فيها مستويات قراءة النصوص وتأويلها. وتشكل هذه الرؤية المنهجية محطة مركزية في الكتاب. وتظهر مسألة تقاطع القضايا والمستويات والأسئلة في كتاب عبد الأحد السبتي من خلال التركيز على السياقات السياسية والاقتصادية والثقافية، وتوظيف أجناس مصدرية متعددة، رحلية، وإخبارية، ومناقبية، وفقهية.

وتعدد السياق هذا هو الذي أخصب موضوع الزطاطة وموضعه في ملتقى متعدد المسالك، إذ تفرعت عنه المظاهر والحالات والأسئلة، وجعلت عملية التحليل تنتقل من تصنيف النصوص إلى تصنيف القضايا التاريخية، والاجتماعية، والثقافية، ومن تبيان شبكة المسالك، والطرق إلى استجلاء لغة تمثل التراب، ومن الكشف عن سياق الأحداث، والوقائع إلى إثارة إمكانيات المقارنة، والتنظير.

ومن القضايا الأساسية التي خضعت للمراجعة في سياق التقاطع المذكور، نذكر على سبيل المثال ثنائية «بلاد المخزن» و«بلاد السيبة»، التي تظهر في كتب الرحلة الاستكشافية، التي جمعت بين الوصف الجغرافي والثقافة الإثنوغرافية، خاصة كتاب شارل دو فوكو المؤلف في نهاية القرن التاسع عشر. فعندما يتناول عبد الأحد السبتي قضية الانتقال من المجال إلى التراب، التي تعبر عنها أشكال تأمين الطرق، فإنه يكتشف «قدرا كبيرا من المرونة، وتمفصلا معقدا بين التدبير المحلي والتدبير المخزني»، وهي أمور لا يمكن فهمها إلا بالتنبه للتشكيلات المجالية، التي تحيل على «خصوصية مفهوم التراب في النسق المغربي التقليدي»، وهي محطات المسالك الطرقية، وثنائية المجال (الغرب/ الحوز)، وظاهرة الأطراف والتخوم، ومسألة الطرف القريب من المركز.

لقد فتح عبد الأحد السبتي، من خلال ظاهرة الزطاطة، مسلكا للبحث في تاريخ المجال، وانتقل عبر فصول الكتاب، ونصوصه، من تاريخ المجال إلى مجال التاريخ، ومن مجال التاريخ إلى تاريخ المجال. وبتعبير آخر، إذا كان صاحب الكتاب قد اتخذ من أمن الطرق قضية أساسية لتناول تاريخ المجال، تاريخ التراب الجغرافي بالمغرب في بعده الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي قبل دخول البنيات الاستعمارية الحديثة، فإنه جعل، من أمن الطرق، على نحو جدلي بين، موضوعا خصبا للتاريخ، ونافذة واسعة لفهم هذا التاريخ.

محمد حبيدة عن موقع رباط الكتب الإلكتروني.



يبدو أن التراث المغربي انخرط مؤخرا بجدية في الحركات الاحتجاجية الاجتماعية التي يشهدها المغرب في السنوات الأخيرة بسبب الاحتقان من جهة وبفعل الانفتاح الديمقراطي الذي دشنته البلاد منذ سنوات عديدة. فبين 19 فبراير و06 مارس 2010 خرج التراث المغربي في انتفاضات عارمة بدون ترخيص، وهكذا هوت يوم جمعة مقدس صومعة مسجد بردعيين بمكناس (إسماعيلي، القرن 17م) على أجساد أزيد من أربعين شهيدا وانهار جزء من برج قصر البحر بآسفي (برتغالي، القرن 16م)، وتوسط هذا العقد الأسود الأليم سقوط قبة مسجد الأمل بزايو الحديث البناء.

إن جمعية خريجي المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وهي تستنكر الإهمال الرسمي الذي يطال قصر البحر بآسفي تطالب في هذه المرحلة على الأقل بما يلي :

- إجراء دراسة تقنية عاجلة وشاملة مع الاعتماد على ما سبق من دراسات بقيت حبرا على ورق،
- مباشرة أشغال الحد من تأثير أمواج البحر وسد الكهوف التي فتحتها بالجرف البحري تحت قصر البحر وجزء من المجال الحضري لآسفي،
- برمجة إنشاء ميناء ترفيهي قبالة قصر البحر وبناء سور واقي للحد من تأثيرات البحر والمركب الكيماوي وصيانة هذه التحفة المعمارية المانويلية وإنقاذ أرواح بشرية من جهة ومن جهة أخرى لإعطاء جمالية للمدينة وتخويلها موارد جديدة وإشعاعا رياضيا وسياحيا ببعد عالمي،
- تضافر جهود عدة قطاعات حكومية لإنجاز هذا المشروع الهام والمندمج دونما تلمس أعذار بالتكلفة الباهظة، فالحكومات التي تحترم نفسها لا تلهي شعوبها بمثل هذه الحماقات،
- العمل على إدراج تراث مدينة آسفي ضمن لائحة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو.

وعلى المستوى الوطني إذ تترحم جمعية خريجي المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث على أرواح الشهداء الذين سقطوا بمكناس والناظور في معركة الإهمال واللامبالاة واحتقار الإنسان والتاريخ تسجل ما يلي :

- تثمين التوجيهات الملكية السامية السديدة بإجراء معاينة وخبرة لكل مساجد المملكة في إطار نظرة مستقبلية وتوقع استباقي،
- تقديم العزاء للمغاربة في فقدانهم لذويهم ولرموز حضارتهم العمرانية التليدة،
- تنبيه كل المسؤولين إلى أن جزءا هاما من المجال الحضري لمدينة آسفي سيسقط في البحر وليس فقط قصر البحر البرتغالي البناء، ومن ثمة ستحل بالمغرب كارثة إنسانية فظيعة وأزمة دبلوماسية هو في غنى عنها،
- تحميل الحكومة المغربية بكل مكوناتها وكل حسب موقعه المسؤولية كاملة في ما آل إليه الوضع بالبلاد وفي ضياع كنوز ثمينة من تراثنا يستحيل تعويضها أو تقييمها ماديا،
- شجب سياسة اللامبالاة التي تنهجها الحكومة منذ عشرات السنين عن قصد تجاه الثقافة عامة والتراث الوطني المغربي خاصة،
- استنكار الصمت الحكومي الرهيب تجاه إهمال التراث وتشويهه وتخريبه وتدميره،
- رفض مباركة الحكومة لكل أعمال الهدم التي لحقت التراث المعماري مؤخرا وخاصة هدم سور أكدال باحماد

بمراكش من طرف السلطات وتدمير قصبة غيلان بطنجة من طرف بنك المغرب،

- استهجان ورفض تحويل محمية غابة المعمورة بضواحي سلا ومناطق فلاحية وبيئية بالمحمدية إلى مطرح للنفايات،
- تقديم الشكر والتقدير لبعض السادة الولاة والعمال الذين أنقذوا تراثا من الضياع ومن معاول الهدم.

إن جمعية خريجي المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وهي تناشد البرلمان والمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان وكل الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات المدنية والحقوقية إدراج حماية التراث الثقافي المغربي ضمن برامجها والتصدي لكل ما يطاله من نهب وتشويه وتخريب، تطالب الحكومة المغربية بما يلي :

- فتح ورش الثقافة وخاصة ورش التراث على غرار الأوراش الكبرى التي فتحتها الدولة في السنوات الأخيرة بأمر ورعاية وتوجيه من جلالة الملك حفظه الله وسدد خطاه،
- مثول السيد الوزير الأول أمام نواب ومستشاري الأمة وأمام وسائل الإعلام لتحديد موقف الحكومة من التراث والثقافة بهذه البلاد وتوضيح سياستها في هذا الباب،
- مثول السيد وزير الثقافة أمام غرفتي البرلمان وأمام وسائل الإعلام لتوضيح ما إذا كانت لوزارته استراتيجية لإنقاذ وتأهيل التراث الثقافي الوطني وسياسة ثقافية عامة للبلاد،
- إدراج حق الإنسان المغربي في الثقافة وحقه في صيانة الموروث الحضاري للوطن ضمن الملفات التي يشتغل عليها المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان،
- إحداث "الوكالة الوطنية للتراث الثقافي" باستقلال مادي وإداري مع وصاية وزارة الثقافة تعنى بكل أصناف التراث المادي وغير المادي للمغرب وتتوفر على فروع بأقاليم المملكة وفق مخطط الجهوية المتقدمة،
- إحداث "المجلس الأعلى للثقافة والتراث والفنون" يعمل على توجيه وتتبع سياسة الدولة في إطار الجهوية المتقدمة ووحدة الوطن من لكويرة إلى سبتة المستلبة،
- التفات غرفتي البرلمان إلى التراث الوطني بالسؤال والمهمات الاستطلاعية وتقصي الحقائق وتوجيه الحكومة ومحاسبتها،
- توجيه السيد وزير الداخلية للسادة الولاة والعمال ورؤساء الجماعات المنتخبة إلى ضرورة العناية بالتراث الثقافي المغربي المادي واللامادي تعريفا وصيانة وتأهيلا،
- إدراج التراث الوطني في كل البرامج الحكومية القطاعية وفي الإعلام نظرا لحضور التراث والثقافة عموما في كل مناحي حياة المجتمعات، مع ترسيخ الدبلوماسية الثقافية والتعاون الدولي،
- إعادة النظر كلية في البرامج التعليمية التجهيلية الحالية من الطور الابتدائي إلى العالي،
- تخصيص الحكومة وزارة الثقافة بميزانية ضخمة وترشيد إنفاقها بدل إهدار المال العام في مشاريع حكومية باهظة التكلفة تكون في أغلب الأحيان فارغة وغير ذات معنى ولا تحمل من التنمية سوى الإسم، في وقت تعاني الأطر بوزارة الثقافة الإهمال والتهميش والتفقير الممنهج،
- اضطلاع وزارة الثقافة بوضع خريطة للمباني التاريخية والمواقع الأثرية المهددة والتي توجد في وضعية هشة،
- سن وزارة الثقافة لاستراتيجية متوسطة وبعيدة المدى لجرد التراث الثقافي وتصنيفه وإنقاذه وتأهيله مع العناية بالتعريف والتوثيق والنشر،
- دمقرطة الخريطة الثقافية والمؤسسات التراثية وبرامجها لتشمل كل جهات وأقاليم المملكة،
- إلحاق المساجد التاريخية رسميا باختصاصات وزارة الثقافة وتحويل عدد منها باتفاق تشاوري موسع إلى مزارات سياحية وهذا يتطلب بناء مساجد جديدة تكون بدورها ذات طابع معماري تراثي يرصع عهد البناء والتشييد والإبداع لجلالة الملك محمد السادس أعزه الله،
- إحياء و/أو تدشين تنسيق وثيق وملزم بين وزارة الثقافة وباقي مكونات الحكومة وخاصة منها قطاعات التربية الوطنية والتعليم العالي والإسكان والبيئة والتجهيز والسياحة والصناعة التقليدية والأوقاف والشبيبة والرياضة والداخلية والاتصال ووكالات التنمية والمكاتب الوطنية والأمن الوطني والدرك الملكي والوقاية المدنية والقوات المساعدة والجمارك والمطارات والموانئ،
- إحداث وزارة الثقافة والسياحة والصناعة التقليدية والاتصال بدل تشتيت قطاعات لا تنفصل سوى لدوافع سياسية.

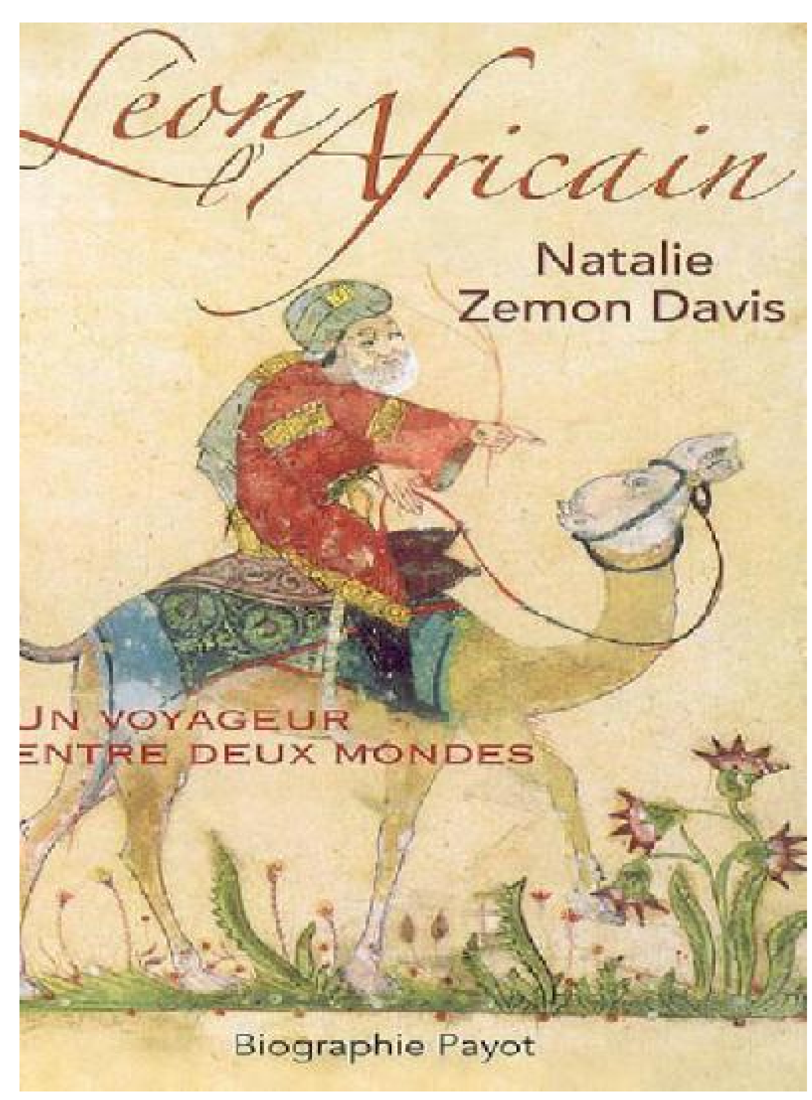
رئيس الجمعية : أبوالقاسم الشبري محافظ ممتاز للمباني التاريخية والمواقع الأثرية)

مركز دراسات وأبحاث التراث المغربي البرتغالي، شارع محمد السادس، ص.ب. 3342 الجديدة

هاتف / فاكس : 86 18 35 523 (212) /

marocarcheo@yahoo.fr

إصدارات



عثمان تزغارت

بطل أمين معلوف أفلت أخيراً من لعنة المكارثيّة اسمه اقترن برواية أمين معلوف التي حققت الشهرة الشعبيّة لـ«ليون الافريقي». اليوم يطل علينا الرحّالة والعالم الغرناطي المولد، من خلال كتاب ضخم يحمل توقيع المؤرخة الأميركية ناتالي زيمون ديفس. ما قصّة هذا المشروع الذي تأجّل أربعين عاماً؟ ومَن هو حقاً حسن الوزّان؟

هو الحسن بن محمد الزياتي الفاسي الشهير بـ«حسن الوزان» أو «ليون الأفريقي». مع أمين معلوف صار رمزاً للحوار والتفاعل الحضاري بين الشرق والغرب... فالجمهور العريض تعرّف إلى شخصيته المثيرة والإشكالية من خلال رواية شهيرة للكاتب اللبناني المذكور، بعنوان «ليون الأفريقي» (منشورات «جان كلود لاتيس» ـــ باريس، 1983). لكن قلّة من الباحثين والاختصاصيين استطاعوا أن يفرزوا بين ما هو متخيّل وروائي في عمل معلوف، وبين الحقائق التاريخية المتعلقة بالوجود الفعلي لهذه الشخصية ذات المسار الملتبس المشوب بالكثير من التقلبات ومناطق الظل.

إذا استثنينا رواية أمين معلوف، لم يتوافر حتى الآن سوى بحثين تاريخيين حاولا التوثيق لشخصية حسن الوزّان أو «ليون الأفريقي» ومؤلفاته. الأول كتبه المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسينيون عام 1906 بعنوان «المغرب الأقصى في السنوات الأولى من القرن السابع عشر: لوحة جغرافية حسب ليون الأفريقي». وقد ظل مفقوداً من المكتبات لأكثر من نصف قرن، قبل أن تُعاد طباعته عام 1996، بمبادرة من المكتبة الوطنية للمملكة المغربية.

أما العمل الثاني، فهو عبارة عن رسالة دكتوراه للباحثة زيري أم البنين، بعنوان «أفريقيا في المرآة الأوروبية: من ليون الأفريقي إلى عصر النهضة» (منشورات «دروز» ـــ جنيف،1991). مثلما هو واضح من عنوانيهما، لم يركّز العملان على التأريخ لشخصية ليون الأفريقي وتناولها بالبحث والتدقيق، بل اكتفيا بتقديمه والتعريف به باقتضاب، وذلك في معرض استشهادهما بأعماله ومؤلفاته بوصفه رحّالة وعالماً جغرافياً.

وها هي شخصية «ليون الأفريقي» تحظى أخيراً بالاهتمام الذي تستحقّه عبر بحث تاريخي ضخم وشيّق (480 صفحة) بعنوان «ليون الأفريقي: مسافر بين عالمين» (منشورات «بايو» ـــ باريس)، يحمل توقيع المؤرخة الأميركية الشهيرة ناتالي زيمون ديفس (1928). أستاذة التاريخ الاجتماعي في جامعة «برينستون»، اكتشفت شخصية «ليون الأفريقي» باكراً وأولعت بها منذ عام 1952. فلماذا تأخّر عملها هذا لأكثر من نصف قرن؟ إنها قصة مثيرة وجديرة بأن تُروى.

المعروف أنّ ناتالي زيمون ديفس اشتهرت عالمياً بكتابها «عودة مارتن غير» (منشورات هارفرد برس ـــ 1983)، الذي اقتُبس عنه فيلمان حقّقا نجاحاً سينمائياً بارزاً في العام ذاته: الأول فرنسي من إخراج دانيال فيني (سيناريو جان كلود كاريير، بطولة جيرار ديبارديو وناتالي باي)، والثاني أميركي من إخراج جون أمييل (بطولة ريتشارد غير وجودي فوستر). ومارتن غير هذا، مزارع فرنسي عاش في القرن السابع عشر، اضطرّ للفرار من مسقط رأسه في بلدة أرتيغا (جنوب غرب فرنسا) بعد اتهامه زوراً بالسرقة. هكذا لجأ إلى إسبانيا حيث تجنّد في جيش بيدرو دي ماندوزا، وفقد رجله اليمنى خلال إحدى المعارك في فلندرا. وبعد ثماني سنوات من الغياب، عاد إلى بلدته ليجد أن شخصاً يشبهه، انتحل هويته وعاش مع زوجته بيرتراند، مدَّعيا أنّه هو وأنجب منها طفلتين. واستغرق الأمر ثلاث سنوات كاملة من المعارك القضائية، كي يثبت العائد أنّه مارتن غير الحقيقي ويعترف مارتن غير المزيف بالخديعة، ويكشف أنّ اسمه الحقيقي أرنو دو تيله!

وقد تتساءل، عزيزي القارئ، ما علاقة كل ذلك بـ«ليون الأفريقي»؟ الجواب أنّ غير مثل الأفريقي عاش في مطلع القرن السابع عشر. وهنا تنتهي المقارنة، ولا توجد أي صلات أخرى بينهما. كل ما هنالك أن ناتالي زيمون ديفس وقعت بالمصادفة ـــ خلال الأبحاث التي كانت تجريها عام 1952 للتوثيق لقصة مارتن غير ـــ على كتاب من الحقبة ذاتها يحمل عنوان «وصف تاريخي لأفريقيا بقلم جان ليون الأفريقي». وهو كتاب طبعه في مدينة ليون الفرنسية عام 1556، الناشر جان تومبورال الذي منحه الملك هنري الثاني امتياز ترجمة هذا العمل من مخطوطته الأصلية التي كتبها «الأفريقي» بالإيطالية.

كانت ناتالي زيمون ديفس تدقّق في الأعمال التي طبعها الناشر تومبورال لأن بعضها جاء على ذكر قصة مارتن غير. وإذا بها تقع في غرام شخصية أخرى لا تقل غرابة وتشويقاً، هي شخصية «ليون الأفريقي». قرّرت المؤرّخة الأميركية، وكانت يومذاك في الثلاثين، أن تخصّص للأفريقي بحثاً منفصلاً ما أن تنهي كتابها عن مارتن غير. لكنها لم تأخذ في الحسبان رياح «المكارثية» التي ستعصف بحياتها وحياة زوجها، عالم الرياضيات شاندلر ديفس. في ذلك المناخ المسموم الذي شهد اضطهاد عدد كبير من المثقفين والمبدعين، والتنكيل بهم بحجة محاربة الشيوعيّة، عرف زوجها السجن وطرد من الجامعة عام 1960، بينما سَحب منها مكتب التحقيقات الفدرالي FBI جوازها، ومنعها من السفر خارج الولايات المتحدة لأكثر من عشر سنوات...

تلك الهزة القاسية جعلت صدور كتاب ناتالي زيمون ديفس الأول عن مارتن غير يتأخر حتى عام 1983. أما مشروع بحثها المتعلق بليون الأفريقي، فبقي مجرد «حلم شباب لم يتحقق».. وها هو حلم الشباب يتجسد أخيراً، إذ أبصر الكتاب النور هذه السنة، بعدما بلغت صاحبته التاسعة والسبعين، وأصبحت أشهر مؤرخة على قيد الحياة متخصّصة في أوروبا القرن السابع عشر.

بالطبع لا يمكن أن نتوقّع من كتاب كهذا أن يرفع اللبس تماماً عن شخصية ليون الأفريقي، ويزيل كل مناطق الظل في حياته. لكنّ ميزته أنه يفرز الغثّ من السمين، ويورد مختلف الروايات المتداولة، مصنِّفا إياها وفقاً لدرجات وثوق مصادرها، لينتهي إلى صيغة لا تدّعي المؤلّفة أنّها تمثّل «الحقيقة التاريخية المطلقة» بل «الوجه الأرجح» لتلك الحقيقة.

أدركت ناتالي زيمون ديفس أنّها إذا سعت إلى إسقاط كل المعلومات والأخبار غير المؤكدة، أو تلك التي تتضارب بشأنها المصادر التاريخية، فلن يبقى لها من ليون الأفريقي أي شيء يُذكر... فلا شيء مؤكداً عن حياته وسيرته، سوى ألقابه الثلاثة التي عُرف بها في مختلف مراحل حياته، وبقيت منها آثار مخطوطة، وهي «حسن الوزان» ثم «يوحنا الأسد» فـ «يوهانيس ليو». أما لقبه الأشهر «ليون الأفريقي»، فلم يظهر سوى لاحقاً، وهو من ابتكار ناشري أعماله بعد وفاته!

مجلة المؤرخ تصدر عن جمعية ليون الافريقي للتنمية والتقارب الثقافي .
جمعية مغربية مهتمة بالتاريخ المغربي عامة والتاريخ المغربي البرتغالي على وجه الخصوص .



قواعد النشر بالمجلة :

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- ألا يزيد عدد صفحات العمل عن (6) صفحات.
- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد داخل المملكة المغربية أو خارجها، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزا على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- تقبل عروض الأطروحات الجامعيةعلى ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (5) صفحات ، يتضمن خلالها العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث ، ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها. و ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته. خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ترسل كافة الأعمال بصيغة برنامج word .
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية ،التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني. والصورة .
- تّرسل كافة الأعمال على البريد الإلكتروني:magazin.histoire@gmail.com

• ذهب السودان الغربي في أوج استغلاله خلال العصر الوسيط. الموطن...والعلاقة مع المغرب الأقصى"

دراسة للأستاذ الباحث : حمزة يحيى

لا شك أن للذهب المجلوب من بلاد السودان إلى المغرب الأقصى مناجم يستخرج منها. ومناطق تشرف على خروجه من بلاد السودان الغربي في طريقهاإلى الشمال (المغرب الأقصى)، وهذه الحركية تستلزم نظام نقل وشبكة طرقية مدارة بكيفية عقلانية تبعا للظروف الطبيعية، ولعوامل الأمن، والظرفية



الجيو-سياسية. فماهي إذن أهم هذه المواطن والبؤر المنجمية؟

قبل استحضار بؤر هذا المعدن وأهم المناجم التي يستخرج منها نشير إلى أنه لابد من استحضار الكيفية التي يوجد بها والحالة التي هو عليها، يقول الادريسي «فإذا كان في شهر غشت وحمى القيض، وخرج النيل وفاض غط هذه الجزيرة أو أكثرها وأقام مدته التي من عادته أن يقيم عليها ثم يأخذ في الرجوع فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من في بلاد السودان المنشرين إلى تلك الجزيرة. بحاثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك من أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر وما يخيب منهم أحد» (1) وكان هذا في معرض حديثه عن «ونقارة» أو «ونغارة» أو «وانغاراوا» كما نجد في بعض الدراسات (2) ويقول القلقشندي في معرض حديثه عن ذهب وركلان «وقد حكي في مسالك الأبصار عن الأمير أبي الحسن علي بن أمير حاجب عن السلطان منسا موسى سلطان هذه المملكة، أنه سأله عن قدومه الديار المصرية حاجا عن معادن الذهب عندهم، فقال توجد على نوعين: نوع في زمن الربيع ينبت في الصحراء له ورق شبيه بالنجيل، أصوله التبر والثاني يوجد في أماكن معروفة على ضفات مجاري النيل تدفر هناك دفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى فيؤخذ، قال:

وكلاهما هو المسمى التبر». (3) ومن هنا نستشف وجود الذهب قبلا على شكل «نجيل» ينمو في الصحراء أو «حصيات» تنمو على ضفات مجاري الأنهار كما أشار الادريسي، ويضيف القلقشندي: تحديدا زمنيا يتفق مع ما أورده الادريسي حول أن نبات الذهب يصبح في طور التشكل على ضفاف الأنهار والمجاري ابتداء من شهر غشت حيث يقول: «أن نبات الذهب بهذه البلاد (يقصد تكرور) يبدأ في شهر غشت حيث سلطان الشمس قاهر، وذلك عند أخذ النيل في الارتفاع والزيادة، فإذا انحط النيل تتبع حيث ركب عليه من الأرض فيوجد منه ما هو نبات يشبه النجيل وليس به ومنه ما يوجد كالحصى» (4) ، ولكي تتضح الرؤية يضيف «وذكر عن الشيخ عيسى الزواوي عن السلطان منسا موسى المقدم ذكره أيضا أنه يحفر في معادن الذهب كل حفيرة عمق قامة أو ما يقاربها فيوجد الذهب في جنباتها، وربما وجد مجتمعا في سفل الحفيرة» (5)

لا يهمنا هنا، هل نتحدث عن القرن السادس الهجري أو ما بعده من العصر المريني بتواجد إمبراطورية مالي (6) التي زار عمالاتها السودانية الرحالة المغربي ابن بطوطة اللواتي الطنجي ،بقدر تبيان الحالة العامة التي يتواجد عليها الذهب كمادة خام في تلك الأسقاع والبقاع ومهما يكن من أمر، فثمة مواطن مهمة لاستخراج الذهب بغزارة بالسودان الغربي، ولعل أبرزها ونقارة يقول عنها الادريسي «ونقارة وهي بلاد التبر المذكورة الموصوفة به كثرة وطيبا» (7) ويحددها الادريسي بقوله، «وهي امتداد لمملكة غانا» (8) ويضيف، «ومن مدينة غانا إلى أول بلاد ونقارة ثمانية أيام وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة» (9) لعله يقصد بالطيب الجودة، ويسهب بوفيل في الحديث عن الذهب في «وانغارا» معززا قول ابن حوقل في كتابه صورة الأرض بقوله على ان الذهب ينمو في وانغارا كما ينمو الجزر (10) ويقول باحتمال أن تكون لوبي هي وانغارا التاريخية، (11) ويقول بما أن كل من الادريسي والبكري يشيران إلى أن منطقتين تنتجان الذهب، الأول إلى وانغارا وتكرور، والثاني إلى إيرسني Iresni وغيارو Ghiarou ، فإن وانغارا وإيرسني التي تقع باتجاه الشرق تنطبقان على بور، وأن تكرور وغيارو تنطبقان على بامبك (12)، وبامبك هذه تكثر فيها الأنهار، وفي اتجاه آخر يقول، كما حدد البكري مناجم الذهب على أنها لا تبعد أكثر عن مسيرة ثمانية عشر يوما من كومبي، عاصمة غانا. على أن الأحقية كانت لبامبك وبور لقربهما من كومبي (غانا القديمة) (13) وبالرجوع إلى ونقارة نفسها، يقول عنها الادريسي: على أن أكثر من يشتري الذهب الذي تجمع بعد رجوع النيل إلى حده الطبيعي هم سكان ونقارة وأهل المغرب الأقصى، «يسك في دور السكة ويستفيد منه أغنياؤهم فيزدادون غنى.» (14) وعموما هناك أربع مناطق تنتج الذهب بغزارة بالسودان الغربي وهي بامبك Bambak ، التي تقع بين السينغال العليا ونهر فاليم Faleme ومنطقة بور التي توجد عند ملتقى النايجر الأعلى مع رافده تنكيسو Tinkisso ومنطقة لوبي Lobi في فولتا العليا. ومنطقتي أشانتي Ashanti في الجزء الخلفي من ساحل الذهب (15) أما عن مدينة تكرور، فهي تعد «أكبر من مدينة سلي وأكثر تجارة، وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والعبيد» (16) وهي التي كانت ترسل الذهب إلى المغرب الأقصى مرفوقا بالفضة ويستوردون الملح من أوليل (17) وهناك مناطق أخرى اضطلعت بمهمة التصدير الذهب إلى الشمال، وهي أودغست التي كانت مستودعا مهما للذهب، والتي يقول عنها البكري أن ذهبها« أجود ذهب الأرض وأصحه» (18) ومدينة غيارو المشار إليها تضم موطن ذهب يستخرج بغزارة ويحمل منها على بعد اثني عشر ميلا إلى غانا وهو ذهب جيد على كل حال، وتبعد هذه المدينة بثمانية عشر يوما عن غانا (19) وبتنوع مصادر الذهب انعكس ذلك على غنى سجلماسة تجاريا (20) وهناك مدينة مداسة وهي «مدينة كثيرة العمارة صالحة العمالات» والتي توجد على شمال النيل (21) مدينة تبعد عن ترقي بستة أيام مدينة متوسطة يتاجر أهلها بالتبر (22) ووركلان اشتهرت كذلك بتصدير الذهب إلى المغرب الأقصى رفقة الرقيق (23) وهذا الذهب المستخرج من هذه المناطق الغنية من إمبراطوريات مالي وغانا في

العصور الوسطى يعبر الصحراء بسجلماسة ومنها إلى سبتة ومن سبتة إلى جنوة الإيطالية التي جمعتها مع السلطة الموحدية علاقات تجارية. (24) وهذا الذهب الذي أحدث تغييرات على المجتمع المغربي طيلة العصر الوسيط، كان يجلب على شكل سبائك من المراكز التجارية المهمة الواقعة في الشمال أو الجنوب من حدود الصحراء الكبرى في سجلماسة، وأودوغاست في وارغلا وثمبوكتو وينقل من هناك إلى فاس ومراكش وإلى تونس والقاهرة وإلى الموانئ التي يعرض فيها الأوربيون بضائعهم (25) كما نود أن نشير إلى أن هناك معادلة طاغية على المبادلات التجارية المغربية /السودانية محصلة للذهب وهي معادلة ملح- ذهب، فالمغاربة يحملون الملح، (26) في إطار التبادل التجاري مع السودان الغربي ويأتون بالذهب لطالما افتقد السودانيون هذه المادة، والتي كانت مسوقة من ملاحة مهمة هي جزيرة أوليل التي يقول عنها الادريسي: «فأما جزيرة أوليل فهي على البحر على مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان» (27) كما ظهرت ملاحتين جديدتين في العصرالموحدي خصوصا بعد النقص الحاصل في ملاحة فاس وهما: واحدة في بلاد حاحا والأخرى في جبل تاجمرت قرب مراكش (28)، على أساس أن الأشهر هي ملاحة أوليل الغزيرة، ضف إلى ذلك ممالح تغازا المشهورة والتي استغلت بشكل كبير في العصر المريني، ونعطي نموذجا للأرباح المحققة من جراء الاتجار بالملح مقابل الذهب مع المرابطين الذين كانوا يجنون أرباحا هائلة مقابل هذه التبادلات إذ أن أثمان حمل واحد ما بين ثمانية عشر مثاقيل ذهبية في إيوالاتن في حين وصل إلى ثلاثين مثقالا ذهبية بمالي (29).

إلا أنه مهما يكن من أمر، فموضوع مناطق وبؤر استخراج معدن الذهب وجلبه إلى المغرب الأقصى يمكن أن نخلص منه إلى العديد من الاستنتاجات:

* هناك كثافة في استخراج الذهب السوداني الغربي طيلة العصور الوسطى ويزداد كثافة كلما اكتشفت مناجم جديدة.

* الذهب في حالته الطبيعية يوجد إما على شكل نبات يشبه نبات «النجيل» ويكثر في الصحراء أو على شكل «حصيات» تتواجد على ضفاف الأنهار وسقنا نموذج النيل، قبل أن يتم غسله وتنقيته وحمله إلى دور السبك ثم إلى بلاد المغرب الأقصى التي تؤطره على شكل عملة تناسب رغباتها.

* إحقاق قضية أن إمبراطوريات غانا ومالي كانتا تنظمان تجارتيهما مع المغرب الأقصى، رغم ما ينشأ في العلاقات من مد وجزر.

* وجود مناطق لاستخراج الذهب بكثافة منجمية قوية تحكيها المصادر، لعله كان استنزافا حقيقيا لها، وبالتالي يظهر على أنه كان بكثرة فيها مثال ونقارة.

* الذهب قبل وصوله إلى العاصمة المركزية وإلى دور السكة والضرب الرئيسية في المغرب الأقصى كان يسلك في حركيته مراحل طويلة-شاقة ومهمة.

هوامش الدراسة

1 - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م 1؛ نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ، ص: 24.

2 - بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، تنقيح روبين هاليت، ترجمة الهادي أبو لقمة، ومحمد عزيز، ط 2؛ منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1988، ص: 215.

3 - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج 5؛ القاهرة دون تاريخ، ص 299.

4 - نفسه، ص: 290.

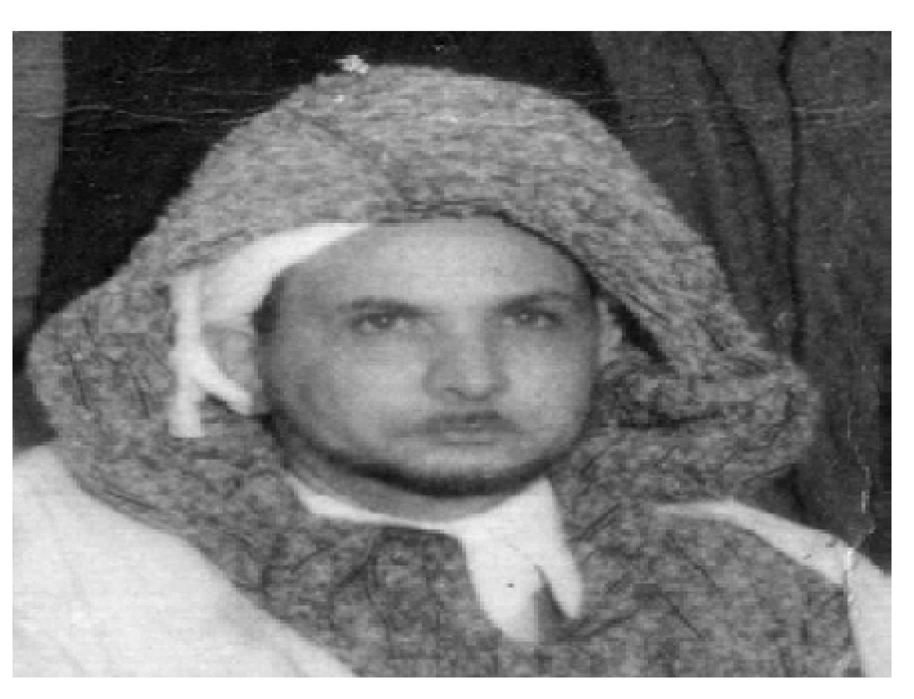
5 - نفسه، ن، ص.

6 - «تمتد حدود إمبراطورية مالي لتشمل المناطق الواقعة بين الحوض الأعلى للنيجر وتمتد غربا حتى المحيط الأطلسي وتحد شمالا بالصحراء الكبرى وفي الجنوب بحوض كامبيا. فضمت بذلك كل المناطق

المهمة في استخراج الذهب».
* حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، مطبعة الفضالة، 1977، ص: 415.
7 - حسن حافظي علوي، م.س، ص: 394/ الإدريسي، م.س، ص: 23.
8 - الإدريسي، م.س، ص: 23.
9 - نفسه، ص: 24.
10 م.س، ص: 215.
11 - نفسه، ص: 218.
12 - نفسه، ص: 215.
13 - نفسه، ص ص، 212-213.
* يقول ماك كول على: أن الأبحاث الأركيولوجية والتفاسير العلمية، التاريخية مضطربة، حول تحديد ما إذا كانت قومبي صلاح هو موقع مملكة غانا القديمة أم لا: إنهم « لا زالوا لم يحرزوا على شيئ لما قبل الإسلام»
* الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانا عرض وتحليل، تعريب وتعليق محمد الحمداوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1395هـ، ص: 66.
* ويقول عن غانا، على أنها استفادت من الخيرات التي وبدت بها باطنيا، خصوصا الذهب الذي يستخرج بكثرة، وبه قوت نفسها طيلة العصر الوسيط،أيضا علاقتها بشريكتها سجلماسة،نفسه،ص:62.
-ويقول عنها ناعمي مصطفى أي(غانا) ، أنها اكتست أهمية كبرى بفضل تواجد الذهب ومناجمه على مسافات قريبة منها ،وهي منطقة بارزة لأنها تراقب مختلف المسالك البرية القريبة منها القريبة من الصحراء .
* تاريخ العلاقات التجارية والسياسية ،مطابع عكاض ، الرباط 1988، ص :52.
- للمزيد من الاطلاع ينظر القلقشندي ،م س،ص: 284.
14 - الادريسي، م س، ص ص: 24-25.
15 - بوفيل، م س، ص:211.
16 - الادريسي،م س،ص 18/القلقشندي،م س ،ص:164.
17- بوفيل ،م س ،ص:153.
18 - أبي عبيد البكري، المسالك والممالكن حققه و قدم له ، أندريان فان ليوفن ، و أندريهي فيري ،ج2؛دار الغرب الإسلامي، لبنان 1992، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص: 64.
19 - بوفيل، م س، ص: 209.
20 - نفسه، ص: 131.
* سجلماسة «مدينة عظيمة إسلامية، بينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة وليس قبليها وغربيها عمران، وبينها وبين غانا من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه لا يدخلها إلا الإبل المصبرة على العطش، اختطها يزيد بن الأسود وقيل مدرار بن عبد الله»
* القلقشندي، م س، ص: 168.
- «مدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة تدغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها بسبخة، حولها أرباض كثيرة ودور رفيعة».
* أبي عبيد البكري، م س، ص: 835.
* مصطفى ناعمي، م س، ص: 47.
21 - الإدريسي، م س، ص: 25.
22 - نفسه، ن.ص.
23 - القلقشندي، م س، ص: 286.
24 - بوفيل، م س، ص: 226.
25 - نفسه، ص: 226.
26 - حسن حافظي علوي، م س، ص: 380.
«والملح معدوم في داخل بلاد السودان فمن الناس من يغدو ويصل به إلى أناس منهم يبذلون نظير كل صبرة ملح مثله من الذهب» القلقشندي، م س، ص: 291.
27 - الإدريسي، م س، ص: 17.
28 - عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي بالغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط 2؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003، ص: 249.
29 - ماجدة كريمي، تجارة القوافل، آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط، ط 1، دار النشر الجسور، وجدة 1996، ص: 35.

حصاد الصحافة

حصاد الصحافة
في ندوة ذكرى مائوية الزعيم علال الفاسي
التاريخ الدولي للمملكة المغربية في مائة سنة
وثيقة الاستقلال قدمت باتفاق تام مع جلالة المغفور له محمد الخامس



نخلد هذه السنة الذكرى المائوية لميلاد المفكر وزعيم التحرير علال الفاسي رحمة الله عليه. وفي هذا الإطار ستنظم عدة تظاهرات ثقافية تلقي الضوء على مسار حياة الزعيم وعلى مراحل نضاله وعلى فترة مهمة من تاريخ المغرب قبل الحماية ومرحلة الكفاح الوطني من أجل التحرر وفترة ما بعد الحماية والدور الذي لعبه الزعيم الراحل والحركة الوطنية في هذا الباب.

وقد انطلقت هذه الأيام بالندوة التي نظمت يوم السبت 13 فبراير 2010 بمؤسسة علال الفاسي والتي شهدت حضور أعضاء مجلس الرئاسة واللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال. وعدد كبير من المفكرين والمناضلين وزعماء الأحزاب السياسية.

وقد افتتحت الندوة بالكلمة القيمة التي ألقاها الأمين العام لحزب الاستقلال ورئيس المؤسسة الأستاذ عباس الفاسي والتي رصدت فيها ملامح من حياة علال الفاسي المفكر والمناضل والإنسان.

وقد قدمت خلال هذا اليوم عروض الأساتذة عبد الرحيم اونين حول الخطاب الكولونيالي المسيحي بالمغرب خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين ودور الوطنيين في التصدي له والأستاذ سعيد بن سعيد العلوي حول الحركة الوطنية وهاجس التنظير، والدكتور عبد الهادي التازي حول التاريخ الدولي للمملكة المغربية في مائة سنة، وعرض للأستاذة ثريا برادة حول الوضع في المغرب في القرن التاسع عشر وعرض للأستاذ محمد العربي المساري حول العمل الدبلوماسي للحركة الوطنية المغربية.

لا يسعنا أمام ضغط الوقت إلا أن نختار طريقة للوقوف على أهم المحطات التي مر بها المغرب خلال هذا القرن (1910-2010) مما يتصل بالعلاقات الدولية بالمغرب.

ولا بد لنا قبل أن نقف مع بعض هذه المحطات أن نأخذ فكرة عن ذلك المغرب الذي أشارت له وثيقة المطالبة بالاستقلال المؤرخة في 11 يناير 1944:

مغرب الأمس:

مغرب الأدارسة الذين دافعوا عن استقلال البلاد حتى لا تتبع لمعسكر الفاطميين في الشرق، ولا الأمويين في الشمال...

مغرب المرابطين الذين أرسلوا سفارتهم إلى بغداد في محاولة غير مسبوقة من أجل توحيد جناحي العالم الإسلامي....

مغرب الموحدين الذين استقبلوا سفارة من جوهن ملك انجلترا يطلب إلى الخليفة الناصر العون المادي في مقابلة أن تعتنق انجلترا كلها دين الإسلام.

مغرب المرينين الذين استصرخ بهم ألفونس العاشر والذين قاموا بمساعيهم الحميدة بين فرنسا واسبانيا من أجل بسط السلام والأمن في جنوب أوروبا.

مغرب السعديين الذين أغدقوا على بريطانيا العظمى من عطايا المغرب الثمينة الرفيعة من أجل استقرار بلادهم وازدهارها....



مغرب العلويين الذين قال اصطيفان كزيل عن جدهم إسماعيل: إنه رابع أربعة من الملوك الذين وحدوا المغرب: ماسينيسا، يوسف بن تاشفين، عبد المومن.
ذلك المغرب.... وجد نفسه مع بداية القرن الماضي، وبالضبط عام 1912أمام معاهدة تنتزع منه حقه الدولي في التكلم عن نفسه بنفسه وإعطاء هذا الحق لدولة أجنبية بعيدة عن حضارته و هويته.
إنها معاهدة الحماية التي ينص فيها البندان: الخامس والسادس على أن الدولة الفرنسوية تكون هي الواسطة الوحيدة بين جلالة السلطان وبين الدول الأجنبية. وتنص على أن سفراء فرنسا في الخارج هم النائبون عن « المخزن» والمكلفون بمصالح المغرب.
لنتصور وقع هذا الميثاق الغليظ الثقيل على المغرب الذي كان على ماتعرفه المجموعة الدولية، مما عرفنا بعضه ونتطلع لمعرفة الكثير منه.
كان يوما حزينا بالمغرب ولو أن المصادر الأجنبية تحدثت عن رحلة صيد بالصقور قام بها العاهل المغربي في اليوم الموالي للتوقيع على عقد الحماية.
لقد نشرت المجلة الفرنسية ILLUSR-TION صورة فوتوغرافية في طول نصف ميتر، وعرض نصف الميتر للسلطان مولاي حفيظ أثناء رحلة الصيد التي تمت يوم فاتح أبريل عام 1912...
وقد ظهر إلى جانب السلطان عدد من البيازين على خيولهم وهم يحملون صقورهم على ظهور أيديهم اليسرى... كانت هذه الصورة مما يندرج في التغطيات المارقة المغرضة والتلبس على الرأي العام.
لم يمر على ذلك اليوم 30 مارس، سوى سبعة عشر يوما حتى شبت ثورة عارمة انطلقت من الثكنة العسكرية بفاس لتأتي على كل ما تجده في طريقها من أجانب... وقد انضمت إلى الجنود الثوار حشود غفيرة من سكان المدينة: خمسة وستون قتيلا من بينهم اثنا عشر ضابطا فرنسيا، تلك كانت حصيلة الأيام التي حملت في التاريخ نعت» أيام فاس الدامية « ... كانت هذه الانتفاضة طالع نحس على عقد الحماية...
وعلى عكس ما قرأناه عبر التاريخ من نعوت جميلة لفاس قالها عبد الواحد المراكشي الذي نعتها ببغداد المغرب، وابن أبي زرع الذي قال: إنها دار علم، وعلى عكس ما قال عنها لوبليش من أنها أثينة المغرب.
على عكس كل ذلك سمعنا الجنرال موانيي Moinierينعتها بالمدينة المجرمة... نعم المدينة المجرمة.
ولقد شعر مولاي حفيظ بأنه جرد من كل شيء، فلم يسعه إلا أن يتنازل عن العرش يوم 11 غشت 1912 لصالح أخيه المولى يوسف الذي لم يكن بدوره راضيا على بنود الحماية وخاصة ما يتصل بالمركز الدولي للمغرب على ما نعرف...
وهنا تحضر مناسبة لم تكن سلطات الحماية تتوقع تعقداتها تلك هي الزيارة التي قام بها للمملكة المغربية رئيس الجمهورية الفرنسية السيد أليكساندرمييران A.Millerand يوم 9 أبريل 1922، بعد مرور عشر سنوات على قيام نظام الحماية...
لقد احتفظت في المجلد العاشر من موسوعتي التاريخ الدبلوماسي للمغرب،احتفظت عمدا بصورة للعاهل المغربي السلطان مولاي يوسف يتحدث إلى الرئيس الفرنسي واقفا، بحضور الترجمانين المغربي والفرنسي، بينما اتخذ المقيم العام المارشال ليوطي مكانه وراء الحاضرين.
احتفظت بالصورة لأنها تؤكد لي ما كان يحكيه المقربون من الفقيه المعمري رحمه الله الذي كان يقوم بدور التشريفات والترجمة..
لقد كانوا ينتظرون من العاهل المغربي أن يصعد إلى السفينة للترحيب بالرئيس الفرنسي حيث تلتقط له الصور على متن السفينة... لكن السلطان مولاي يوسف قال: إنه ينتظر الرئيس الفرنسي على الأرض المغربية.
وهكذا اضطر المنظمون إلى نصب خيمة ملاصقة للمركب وهناك تم ترحيب السلطان مولاي يوسف على نحو مانراه في الصورة التي تحمل أكثر من دلالة.
وينبغي أن نعرف أن السلطان المولى يوسف كان يحرص على أن يصادق هو على المرشحين للعمل القنصلي من قبل دولهم على ما يشهده طابعه على الرسائل المخزنية التي يحتفظ بها الأدب الإداري للمغرب.
لكن ما كان مثيرا للانتباه هو الزيارة التي قام بها السلطان مولاي يوسف إلى فرنسا حيث استقبل العاهل بمحطة ليون يوم 12 يوليه 1926.

كان المهم عندي في هذه الزيارة أن العاهل المغربي وهو يدشن مسجد باريز لم ينس المركز الدولي للمغرب بالأمس، لذلك نراه يتعمد الإشارة في خطابه أمام الحاضرين إلى أن جده السلطان سيدي محمد بن عبد الله (محمد الثالث) هو من كان وراء الفكرة في إنشاء هذا المسجد بباريز عندما وقع على النص في الاتفاقية المغربية الفرنسية عام 1767 في أعقاب موقعة العرايش الشهيرة، والتي كانت حديث المجالس في ذلك الزمان لدى الصحف والمجلات الأجنبية المتكلمة بالفرنسية والاسبانية والانجليزية.

بعد هذا. وفي عهد ابنه الملك محمد بن يوسف لابد أن يستوقفنا حدث آخر غير مسبوق شاهدته الساحة الوطنية عام 1934 وأسهم فيه ملك المغرب وكتلة العمل الوطني آنذاك، كان ذلك أيام ولاية المقيم العام (هنري بونصو)الذي – كلنا يعرف- كانت له صفة دبلوماسية خاصة به، دون سائر المقيمين الذين تعاقبوا على المغرب.

قلت أسهم في الحدث ملك المغرب سيدي محمد بن يوسف منذ سنة 1934، وأعني بالحدث مطالب الشعب المغربي التي قدمها وفد مغربي إلى المقيم العام هنري بونصو..

لقد حضرت هذه المطالب بعض استشارة كل من يهمهم الأمر من سائر الأوساط على رأس الكل سيد البلاد آنذاك السلطان ابن يوسف.

كلنا يعرف أن العريضة التي قدمها حزب الاستقلال عام 1944 كانت عملا اشتركت فيه يد العاهل ويد الشعب، ولكنا لم نكن نعرف أن عريضة مطالب الشعب المغربي عام 1934 لم تقدم للإقامة العامة إلا بعد استشارة من لدن جلالة الملك.

والجدير بالذكر أن هذه النقطة بالذات منصوص عليها نصا في الخطاب الذي رفعه الوفد المغربي إلى المقيم العام هنري بونصو.. نص هذا الخطاب الذي نشير إليه والمرفوع إلى المقيم العام إنما توجد نسخة منه خطية واحدة اكتشفناها في تونس قبل بضعة أشهر عند أحد المتحرين في الأشياء الثمينة، وصله الخطاب من أحد ورثة المقيم العام...

المهم عندي ليس هذا ولكن المهم أن هذا الخطاب يصحح لنا بعض المعلومات عن ظروف تقديم مطالب الشعب المغربي التي قدمها وفد يتكون حسبما نشرته مطبعة الإخوان المسلمين من عشرة أشخاص بينما الخطاب المرفوع للمقيم العام لا يذكر ثلاثة السيد محمد بن حسن الوزان، ولا يذكر السيد الملكي الناصري ولا يذكر السيد عمر بن عبد الجليل.

هناك مؤتمر انعقد في (كولوراضو بالولايات) سنة 1979 يحمل عنوان:

«The future of the paste » موضوع المؤتمر كان غريبا على بادئ الأمر.. إذ كيف يمكن أن نتصور مستقبلا لماض راح وذهب.. وقد تبين فيما بعد أن المؤتمر جد هام،وأنه يتناول ترميم المعلومات الناقصة أو الخاطئة التي كنا نؤمن بها في الماضي قبل أن نكتشف المعلومات اللاحقة التي تصحح لنا المعلومة السابقة.

وقد اتسم موقف الملك أثناء نزول القوات الحليفة بالمغرب عام 1942 بالحكمة والنضج السياسي الرفيع ومن تمة سجل التاريخ اللقاء التاريخي الذي تم في آنفا الدار البيضاء يوم 22 يناير بين محمد بن يوسف وبين الرئيس الأمريكي روزفلت والوزير البريطاني الأول رشيل تشورشيل،هذا اللقاء الذي يعتبر. كما نرى. ثورة على الحماية وعلى بنودها التي تنتزع من المغرب حق اتصاله بالأجانب أو بالحري الحق الدبلوماسي...

في نهاية المأدبة انفرد الرئيس الأمريكي بالعاهل المغربي ورجاه أن يبق ى بعد أن ينصرف المدعوون، بمن فيهم المقيم العام الفرنسي الجنرال نوكيس.

يقول الملك الحسن الثاني في كتابه» التحدي»:... وبعد حديث دار عن الحالة العامة بالمغرب أخذت المحادثة شكل حوار بين الرئيس ووالدي، وكان السيد المعمري يترجم للآخر ما يقوله الأول.

وفي الواقع أكد الرئيس الأمريكي أن النظام الاستعماري قد عفى عليه الدهر... وكان مما قاله تشورشيل محاولا أن» يغرق السمكة» كما يقول المثل الفرنسي،قال: بعد الغزو الفرنسي للجزائر كانت بريطانيا، خلال نصف قرن تقوم بوظيف الحارس لسلامة الإمبراطورية الشريفة...

ولكن روزفلت عاد للموضوع ليقول:نحن لم نعد نتكلم عن ذلك الماضي ..

وكذلك ليعبر عن تطلعه إلى رؤية اليوم الذي سيصل فيه المغرب إلى استرجاع استقلاله، متمنيا أن يكون هذا اليوم قريبا عندما تضع الحرب أوزارها... وأضاف مؤكدا أن الولايات المتحدة ستخص المغرب المستقل بمعونات اقتصادية متميزة».

ولا شك أن الرئيس الأمريكي كان في غير حاجة لكي يتذكر. وهو يتحدث.ملك يحمل لقب محمد الخامس، كان في غير حاجة لكي يذكر أن الملك محمد الثالث جد هذا الملك الحالي، هو من اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية قبل الدول الأخرى وهو من قام بمساعيه الحميدة لدى عدد من الدول الإفريقية من أجل تطبيع علاقاتها بالولايات المتحدة..

هذا اللقاء التاريخي بالبيضاء كان ضربة قاسية. كما قلنا. لبنود معاهدة الحماية التي. كما قلنا. صادرت حق المغرب في ممارسة عمله الدبلوماسي...

ولقد أبدى العاهل رغبته في زيارة طنجة هذه المدينة التي كانت بالأمس القريب عاصمة دبلوماسية للمملكة المغربية.

وفي طنجة حصل ما لم يكن في الحسبان: إن ما اتفق عليه في الرباط عند برمجة الرحلة أوما قيل إنه اتفق عليه،وقع اختراقه، وهكذا وجدنا الملك يتحدث عن الاستقلال ويتحدث عن انتساب المغرب للجامعة العربية ووجدناه يتحدث عن رابطة العالم الإسلامي.

لكن ما كان ملفتا للعالم الخارجي هو استقبال العاهل لأعضاء السلك الدبلوماسي والقنصلي بطنجة ضاربا عرض الحائط ببنود الحماية التي تنص نصا على أن لا صلة بين الملك والدول الأخرى إلا عن طريق المقيم العام.

سأكتفي بالإحالة على نصوص التقارير التي رفعتها القنصليات الأجنبية إلى دولها...

وكان من ردود الفعل التي تركتها الزيارة أن البطل المغربي محمد بن عبد الكريم رفع إثر لجوئه إلى مصر صيف 1947 رسالة إلى الملك محمد بن يوسف يعبر فيها عن اعتزازه بقراءة الخطاب الملكي بطنجة.

ولكي تسترجع السلطات الاستعمارية هيبة فرنسا الضائعة على حد تعبير الصحافة الفرنسية، عينت الجنرال جوان مقيما عاما بهدف استعمال العنف.

وهذا الجنرال هو الذي وجدناه يرفع تقريرا خطيرا وحارقا في ذات الوقت، بتاريخ16 شتنبر 1950 إلى الحكومة الفرنسية يكشف فيها عن المذكرة التي رفعها حزب الاستقلال إلى الملك وإلى القنصليات الأجنبية والصحافة الفرنسية...

ولم يكن غريبا بعد كل هذه الانتفاضات المثيرة أن نجد القضية المغربية تأخذ طريقها عام 1950 إلى مبنى الأمم المتحدة في دورتها الخامسة في نيويورك.

قفزة كبرى إلى قمة النشاط الدبلوماسي حيث تتعرض معاهدة الحماية إلى أكبر فضيحة على الصعيد الدولي.

سوف لا أطيل الحديث حول ما كان يتردد في تلك الأرجاء من تنديد بالحماية الفرنسية وفضح لممارستها بالمغرب، لقد كان أعضاء المنتظم الدولي يسمعون بمحمد الخامس، يتساءلون هل كان هنا محمد الرابع؟ وأين هو محمد الثالث إلخ وماذا عن هذا المغرب قبل دولة هؤلاء المحمدين؟

وسأنتقل إلى القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية بالسماح للصحافة العالمية بزيارة المغرب متوهمة أن الصحافة ستجاملها، وجاءنا الدكتور محمود عزمي أواخر مارس 1951، عن جريدة الأهرام، فتجلت الفضيحة الكبرى في تصريح مكتوب سلمه العاهل المغربي إلى المندوب المصري حيث اكتشفنا، فيما بعد، عن الاتصالات السرية التي كانت للملك مع قادة حزب الاستقلال، وظهرت الأجوبة على أول صفحة من جريدة الأهرام.

وحتى تكتم الإدارة الفرنسية أنفاس الوطنيين تقرر اجتماع الأمم المتحدة في دورتها السادسة عام 1951 بباريز بقصر شايو... حيث أثيرت القضية المغربية من جديد. لكن أخبار المتدخلين لصالح المغرب لم تتأثر باستضافة فرنسا للمجتمع الدولي، فكانت تصريحات المتدخلين تنزل بردا وسلاما على أبناء المغرب.

لقد فتحت لنا نافذة على العالم هناك، وكان طلبتنا في باريز ينقلون ما يجري في قصر شايو مستعينين بأحرار فرنسا ممن كانوا لا يرتضون السلوك الاستعماري.

وأشعر بأنني مطالب بأن أكشف هنا عن حقيقة بقيت خافية.. كل التدخلات التحررية التي قيلت في شايو عن المغرب أتلفت بين وثائق الأمم المتحدة.

ويشعر الباحث وهو يقرأ بعض الصحف الباريزية على ذلك العهد.وعلى رأسها جريدة « لوموند» أن هناك إيعازا بالتشغيب على الملف المغربي.

يجب أن نستحضر مثل هذه التصرفات الحقيرة في تلك الظروف التي كان فيها الملك محمد بن يوسف يعيش على صلة قوية ببعض من بقي من الوطنيين خارج السجون والمنافي.

لقد جعل الاستعمار في صدر انشغالاته الرخيصة أن يطلب إلى الملك محمد بن يوسف أن يتبرأ من حزب الاستقلال ،حيث وجدنا أن الملك يضرب بمطلبهم عرض الحائط كما يقولون.

ولابد لي أمانة للتاريخ أن أفتح نافذة أخرى على التاريخ الدولي للمغرب ربما أهملها بعض المتتبعين بينما عشنا نحن لذائذها.

النافذة نفتحها على بعض العناصر المتنورة من الفرنسيين الشرفاء الذين كانوا يرون في تصرفات الإقامة العامة تصرفات لا تشرف فرنسا.هذه الطائفة ظهرت أثناء هذه الأزمة المغربية الفرنسية، بداية الخمسينات من القرن الماضي، من أمثال جان فيدرين الذي كان يساعدنا بغير حساب.

سأحكي عن رحلة إلى فرنسا عام 1952 حيث ضمتني الأقدار مع العميد البروفيسور بيران سمع عن أنني كنت سجينا عام 1944، فتساءل عن الأسباب، وشعرت بأن الرجل كان يحس بالخجل وهو يصغي إلي...



ولا أنسى في التاريخ الدولي أنه حتى في تلك الأيام الحرجة التي كان يعيشها المغرب كانت المؤسسة الملكية تعمل جاهدة على إبلاغ صوتها بشتى الوسائل للطرف الآخر... لابد من أن نشير إلى أن الرسائل التي كان ملك المغرب يرفعها إلى رئيس الجمهورية الفرنسية محاولا أن يساعده في إنقاذ الموقف.

وقد ظهرت المكانة الدولية للمغرب واضحة جلية عندما جرؤت السلطات الاستعمارية على ارتكاب أكبر حماقة في التاريخ عندما نفت العاهل المغرب إلى مجاهل الدنيا...

لم أكلف نفسي عناء السفر لتتبع ردود الفعل في مختلف جهات العالم، وإنما اكتفيت الاعتكاف بضعة أيام في « الكي ضورصي» بباريز حيث توجد نصوص مختلف التقارير التي كانت تتهاطل على وزارة الخارجية من مختلف السفارات الفرنسية في الخارج،بل ومن بعض المخبرين المحترفين....

أعترف أنها كانت تقارير نظيفة تعكس وجهة النظر التي عرفناها للدبلوماسيين الأصلاء الذين يكاشفون لدولهم بالحقيقة التي عرفوها غير مكترثين بما قد يلحقهم جراء مخالفتهم لوجهة نظر وزرائهم.

معظم التقارير كانت تتذكر التاريخ الدولي للمغرب أيام كان يرسل سفراءه هو إلى أوربا، وتتساءل عن الجواب الذي يمكن أن يقنع به تلك السفارات مختلف الذين يكتبون أو يعلقون أو يحتجون.
وسأقترح عليكم أن تنتقلوا إلى أرشيف هيئة الأمم المتحدة لتسمعوا أيضا إلى المحاضرات والمداخلات، وقد اضطر الوفد الفرنسي عام 1953و1954 و1955 إلى اتخاذ قرار بالغياب عن تلك الجلسات التي كانت تمرغ سمعة بلادنا في التراب.
ملف المغرب في الأمم المتحدة لا يعد بالأوراق، ولكن بالكراسات والأضابير ولا ينبئك مثل خبير.
ولقد أدركت حكومة الرئيس أدكافور منذ تشكيلها في فبراير 1955 مدى فداحة الخطأ الدبلوماسي الذي ارتكب في حق المغرب، فجددت الاتصال بالعاهل المغربي في المنفى بواسطة طبيبه السابق الدكتور ديبواروكير...
وانتهى الأمر بعودة الملك محمد بن يوسف إلى المغرب بعد مقام في باريز حيث تم الاعتراف بنهاية عهد الحماية من خلال تصريح لاسيل سان كلو 6 نونبر 1956 (La celle - Saint - Clond) .
وتحضرني نكتة طريفة سمعتها من الدكتور طه حسين، بعدما استقبله الملك محمد الخامس
كانت تقام له عدة احتفالات في مختلف القواعد المغربية، وكان الرئيس علال الفاسي وصحبة محمد بوستة عندما يقدمون لديه الذين يحتفلون به في الدار البيضاء والرباط وفاس يقولون: أن صاحب هذا البيت كان في السجن محكوما عليه بكذا سنة.
كتب طه حسين يقول:لقد خيل إلي أنني كنت أعيش في جزيرة للمجرمين المنحرفين بمن فيهم ملكهم محمد الخامس.

× × ×

هنا أصبحت مدينة الرباط بعد استرجاع المغرب استقلاله كعبة لسفراء سائر الدول يتنافسون لكي يكونوا السباقين الأوليين في تقديم أوراق اعتمادهم للملك محمد الخامس على نحو ما كانت تلك الدول تفعل في سابق الأيام مع ملوك المغرب...
هنا تكونت مجلدات للدول التي فتحت لها سفارات بالمغرب ابتداء من اسبانيا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا إلى آخر دول أوروبا الغربية ثم الدول الشرقية وجامعة الدول العربية والقارة الأمريكية، ودول آسيا واستراليا، ودول إفريقيا التي سعى المغرب إلى جمعها فيما سمي ابتداء (منظمة الوحدة الإفريقية)...
مئات المعاهدات المبرمة، ومئات الوفود المتبادلة... عشرات المنظمات الدولية التي وجدت في المغرب أفضل ملاذ للمقام،ليس فقط المجال الدبلوماسي والسياسي ولكن كذلك المجال العلمي والثقافي حيث رأينا طائفة من أصدقاء المغرب من العالم الغربي والعالم العربي كذلك تفضل المقام بالمغرب. وبدوره أمسى المغرب عضوا في المنتظم الدولي بمقتضى ظهير يعتمد فيه العاهل الحاج أحمد بلافريج رئيسا للدبلوماسية المغربية، وقد دشن هذا الحضور بالزيارة التاريخية التي قام بها الملك محمد الخامس لمبنى الأمم المتحدة يوم الاثنين 9 دجنبر 1957.
كانت الأمم المتحدة اعتادت أن تسمع اسم العاهل المغربي من خلال الخطب والتدخلات التي كانت تسمعها في أرجاء المنتظم الدولي، ومن هنا نتصور مدى الشعور الذي كان يمتلك أعضاء الهيئة الأممية الذين كانوا على موعد مع رؤية ذلك العاهل الأسطورة الذي ركل العرش واختار المنفى في مصلحة شعبه.
لقد دوت القاعة بالتصفيق والملك يخطو نحو المقعد المخصص له بجلبابه الأبيض وهندامه الجميل.. وكان في الحاضرين من حمل معه جهاز المكبر حتى يرى ملامح العاهل كاملة، وكان فيهم من حمل جهاز تصوير خاص به.. لقد أدرك الحاضرون جميعا أن هذا العاهل سيكون المفتاح لكل الذين يثورون من أجل الحرية في أية جهة من جهات العالم... سيكون « بشرى» الخلاص لكل المعذبين في الأرض.
وقف العاهل يلقي خطابه باللغة العربية، وكان رئيس الجلسة هو السيد ليسلي مونروLeslie Monro . ليحمل إلى جميع الأمم الممثلة « هناك، تحيات الود من شعب حظي في نهاية المطاف بالانضمام إلى حظيرتكم» يقول الملك محمد الخامس حسبما ورد في الوثيقة الأممية في الجلسة العامة المنعقدة يوم الاثنين 9 دجنبر 1957 (16 جمادى الأولى 1377) في الساعة الثالثة، الدورة الثانية عشر....
« وإذا كانت دولتنا تمتاز بأنها دولة فتية، فإنها في نفس الوقت تمثل أمة عتيقة متشبثة بعقيدتها وبقيم الإسلام السمحة التي كانت أسس حضارة شديدة الحرص على السلام والعدالة والمساواة... ولما للمغرب من رغبة أكيدة من إقرار علاقات سليمة مع سائر الدول فقد آثر عن طواعية واختيار طريق المفاوضات لحل مشاكله... إننا نعيش في عصر ينكر الانفراد ويأبى العزلة... والتخريب في العصر الحاضر معناه القضاء المبرم على ألوان من الحياة الجديدة. وبما كان يمتلكه، رحمه الله، من آمال في أن يرى بلاد المغرب الكبير وقد أصبحت جميعها حرة طليقة مستقلة تسهم في بناء المجموعة الدولية قال:
ويؤلمنا ألما شديدا أن تجري في أرض جارتنا الجزائر الشقيقة معارك يتسع نطاقها يوما بعد يوم، وما أشد رغبتنا في أن تباشر مفاوضات بين جميع من يهمهم المر لتسوية النزاع القائم تسوية تتفق ومبادئ الأمم المتحدة.
لقد كانت آخر كلمة في خطاب العاهل أمام المنتظم الدولي: إن أملنا الوطيد في أن تصبح منظمتكم ملتقى لجميع شعوب العالم، ومثلا للتشاور والحوار حتى يسود السلام وتعم الحرية وتنتشر العدالة.»

× × ×

وقد استمرت المسيرة بعد استرجاع الاستقلال...وعرفت الخارجية الناشئة نشاطا ملحوظا منذ يوم تأسيسها بعدما تسلم السيد الحاج أحمد بلافريج الظهير من يمين الملك محمد الخامس يوم 26 أبريل 1956.
سأذكر في أبرز الأحداث التي عرفها التاريخ الدولي للمغرب قضية استكمال الوحدة التاريخية للمغرب، فإن من المعروف أن المغرب عندما كان يناضل من أجل استرجاع استقلاله لم يكن يقصد فقط إلى استرجاع المنطقة الإسبانية، ولا المنطقة الدولية فقط ولكن المغاربة كانوا يقصدون أيضا إلى كل المواقع التي كان الإسبان يبسطون عليها سيطرتهم في الشمال والجنوب،وفي هذا السياق نذكر خطاب الملك محمد الخامس في محاميد الغزلان يوم 15 فبراير 1958وهو الخطاب الذي يسجل إلى اليوم موقف المغرب من استكمال وحدته الترابية..

وسأذكر في الأحداث التي عاشتها علاقة المملكة المغربية بحاضرة الفاتيكان.. ونحن نعلم عن دور الفاتيكان في المجموعة الدولية، ولهذا فلم أنس الخطاب الهام الذي وجهه الملك محمد الخامس إلى المؤتمر الدولي الثقافي الذي انعقد بالمغرب، في توملیلین على مقربة من مصطاف إيفران بتاريخ 22 غشت1956.
لقد كان لهذا المؤتمر قصة مطرفة، ففي أثناء نفي الملك كانت،» الفاتيكان» تقوم بنشاطات مماثلة في هذه المنطقة،وعندما استرجع المغرب استقلاله أشاع بعض المغرضين أن المغرب المستقل سيعادي النشاطات المسيحية.
لقد كان الملك يرى في ذلك المؤتمر استجابة لرغبة متغلغلة في صدره ألا وهي الدعوة إلى التقارب بين الأديان والأجناس، وقد أشاد العاهل في خطابه الذي حضرته بالرباط، أشاد بالبروفيسور ماسينيون الذي، كلنا يعلم، كان له موقف مشرف من عودة محمد بن يوسف إلى عرشه على نحو جاك فيدرين الذي أشرنا إليه.
وسأذكر في جملة ما أذكر أن العاهل المغربي محمد بن يوسف أعلن منذ أبريل 1947 بطنجة عن انتمائه للجامعة العربية، وها نحن نرى المغرب المستقل يبادر للانضمام رسميا إلى الجامعة العربية حيث أصبح عضوا عاملا منذ عام 1958 في سائر فروع الجامعة.
وقد وجدنا أن العمل الدبلوماسي للمغرب يستمر بعد استشهاد الملك محمد الخامس 10 رمضان 1382/16 فبراير 1961 هناك شاهدنا مؤتمر القمة العربية الأولى، ينعقد بالقاهرة يوم 27 شعبان 1383/ 17 يناير 1964، حيث تميز حضور المغرب بحدث فريد من نوعه وهو تسليم الضباط المصريين الذين وقعوا في ضيافة الجيش المغربي أثناء الخلاف المؤسف بين الجزائر و المغرب حول الحدود الشرقية بين البلدين...
وأذكر أن ما تميزت به الرحلة الرسمية التي قام بها الملك الحسن الثاني للولايات المتحدة الأمريكية في ذي القعدة 1382/ 27 مارس 1963، مما تميزت به الخطاب الذي ألقي بواشنطن جوابا عن كلمة الرئيس كينيدي، حيث أعاد العاهل للذاكرة الصلات التاريخية التي كانت تربط بين المملكة المغربية والولايات المتحدة في شخص الملك محمد الثالث والرئيس جورج واشنطن.
وبهذه المناسبة أهدى الملك الحسن الثاني نسخة من الدستور المغربي للرئيس الأمريكي، ونحن نذكر سلفا أن الرئيس جورج واشنطن كان أهدى وقتها للملك محمد الثالث نسخة من الدستور الأمريكي....
ولابد أن لا أنسى هنا مما مر به التاريخ الدولي للمغرب، لابد أن أذكر حدث العلاقات مع جمهورية الصين.
لقد شاهدنا أول سفير للصين الشعبية بي رين Bay – Ren يقدم أوراق اعتماده يوم 29 أبريل 1959، وكان حدثا عظيما أن يجرؤ الملك محمد الخامس على الاعتراف بالصين بالرغم من الاعتراضات والضغوطات التي توالت عليها من كل جانب... كانت مبادرة رائدة تذكر بما أقدم عليه الملك محمد الثالث، قبل أكثر من قرنين عندما اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا أبرمت طائفة من الاتفاقيات بين البلدين وتبودلت الزيارات بين كبار الشخصيات..
ولقد كان مما تميز به التاريخ الدولي للمغرب في هذه الفترة ما دأبت عليه المؤسسة من المطالبة بحق المغرب في الالتحاق بالمجلس الأوربي حيث احتفظنا بعدد من الرسائل المحررة باللغة العربية مما يجعلنا نقدر دور الأدب الإداري في العمل الدبلوماسي.
ولقد كان مما تميز به التاريخ الدولي في هذه الفترة أن العاهل المغربي كان حريصا أشد الحرص على تفعيل ما يسمى في الاصطلاح الدولي بالدبلوماسية الموازية.. لم أستطع بكل صراحة أن أستوعب أنماط الدبلوماسية الموازية التي كان المغرب يبرع في استعمالها واستثمارها كذلك.
وقد فوجئت ذات يوم وأنا في مستشفى(فال دوكراص) بباريز، بما أطلعني عليه الجنرال لوفيفر رئيس المستشفى: هناك كنيسة تحفة من التحف الفنية العالمية الرائعة.
قال لي هذا الطبيب الرئيسي للمستشفى: إن تمويل هذا المعبد كان من المال الخاص للملك الحسن الثاني... سألته عن السبب في هذه المبادرة من الملك، أجابني: إنه عرف الأسباب عندما سمع باعتراض قداسة البابا على صنيع إسرائيل في بيت المقدس.
باب الدبلوماسية الموازية يمكن أن نقضي الساعات دون أن نصل إلى نهايته... الملك الحسن الثاني هو الذي كان يقول: أن العمل الدبلوماسي كالمطر الذي ينزل على الأرض قد تستفيد منه في هذه الفترة أو الفترة التي تليها... العمل الدبلوماسي الموازي استثمار قد يعطيك نتائجه هذه السنة أو بعد بضع سنوات.
وكم وقف المغاربة على أمثلة من هذه الدبلوماسية التي نسميها الدبلوماسية الموازية... شاهدنا هذه الأمثلة في الميدان الرياضي في النشاط البرلماني، وفي التواصل الإنساني...
سأزود مؤسسة علال الفاسي بكل العناصر التي اعتمدت عليها في كتابة هذه الورقات من عرائض وصور ورسوم لتبقى شاهدا على التاريخ الدولي للمغرب طوال هذا القرن الراحل.
وقد كان مما يسليني حقيقة وأنا أكتفي بذكر رؤوس المسائل وأهم المحطات أنني قدمت لأبناء بلادي بعض ما يذكرهم بماضي بلادهم، عساهم يبحثون عن ذاتهم في ذلك الماضي، وعلهم يضيفون لبنة جديدة لذلك البناء الشامخ، وقديما قالوا: استتمام المعروف خير من ابتدائه.
ومن دون ما أن نفتح ملفات الحاضر التي تنطق بكل المفاخر أقترح العودة إلى المجلدات الضخمة التي تحتضنها إدارة القضايا القانونية والمعاهدات لنقف على المنجم الغني الثري الذي تتوفر عليه الدبلوماسية المغربية في حاضرها المتحرك المتجدد التنوع..
ذلك المنجم الذي يأخذنا إلى أقصى بقاع الدنيا عموديا وأفقيا حيث نرى أن هذا المغرب لم يفرط في الرصيد العظيم الذي ورثه عن أسلافه، ورثه عبر رجاله ووثائقه، نرى أن ذلك الماضي حاضرا باستمرار، وعلى مختلف الصعد، ويكفي أن نستعرض الدليل الدبلوماسي لكل أمم العالم لنجد أن المغرب يجوب القارات والأقيوناسات مجددا للعلاقات بانيا للجسور والصداقات، الأمر الذي فرض على تلك الأمم أن ترحب بالمغرب كحليف متميز بين حلفائها، وكفاعل قوي في بناء السلام العالمي، وكعميد أصيل في الأسرة الدولية، يظل الأساس في الرأي والسياسة واتخاذ القرار..

العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب «وصف إفريقيا»

الحسين عماري : أستاذ باحث – بني ملال - المغرب.

تقديــم إشكالي
تعتبر كتب الرحلات والجغرافيا من المصادر التاريخية التي تشكل إطارا مرجعيا مهما، ومادة أساسية يستقي منها الباحث، في الدراسات الإفريقية خاصة، الكثير من المعطيات المفيدة التي يمكن أن يؤسس عليها فرضياته النظرية وبناءه التاريخي، لرسم صورة عن تاريخ العلاقات التجارية بين بلاد المغرب عامة وبلاد السودان الغربي ولاسيما في بداية العصر الحديث. ويعتبر كتاب «وصف إفريقيا» للحسن الوزان(1) من بين أهم هذه الأصناف من الكتب التي تفي بالغرض في هذا المجال. إنما ما هي الأهمية التي تكتسيها هذه المصادر عموما؟ وما هي الإشكاليات التي تطرحها على المستويين المعرفي والمنهجي؟ وما هي القيمة العلمية والمعرفية لكتاب «وصف إفريقيا» خصوصا، وما مدى استفادتنا منه؟



1 - أهمية المصادر التاريخية المغربية -لاسيما منها كتب الرحلات والجغرافيا- والإشكاليات التي تطرحها معرفيا ومنهجيا

جوابا عن التساؤلات التي طرحناها من قبل، يمكن القول إنه رغم أن المصادر المغربية عموما وكتب الرحلات خصوصا كتبت بذهنية مغربية، فهي مع ذلك مصادر لا غنى عنها لأنها تكمل في الغالب المعلومات الواردة في التواريخ السودانية(2)، وتكمن أهميتها كذلك في دحضها لبعض الأطروحات أو الأفكار التي دافع عنها بشدة بعض الباحثين الأجانب، كظاهرة جلب الرقيق السود من بلاد السودان التي دافع عنها أبطبول(3) وغيره، وهي تكتسي أهمية بالغة بحكم ما تزخر به من معطيات قيمة، وما تقدمه من عناصر على شكل إشارات وأوصاف وروايات يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها في بنائه لتاريخ المجتمعات(4)، كما أنها تكشف عن كثير من المعطيات المتعلقة بموضوع هذه الدراسة بالذات، حيث تمكننا من التعرف على معلومات مهمة حول عبور الصحراء، والطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل وما طرأ عليها من تحول ترتبت عنه عواقب وخيمة بالنسبة للمغرب(5)...
لكن رغم الأهمية التي تحظى بها هذه المصادر بالنسبة لتاريخ العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان خلال الفترة موضوع دراستنا، فإن استغلالها يطرح إشكاليات معرفية ومنهجية، فما هي إذن هذه الإشكاليات؟
من بين الإشكاليات التي تطرحها بعض المصادر المغربية والتي وقع حولها خلاف بين الباحثين، هناك:
- مدى تحري مؤلفيها -أي الرحالة- الصدق والحقيقة في كتاباتهم التاريخية؟ فالحسن الوزان الذي نعلم أن له إلماما بالمعطيات الجغرافية بحكم ما خلفه من أوصاف غنية ومحددة، وقع مع ذلك في هفوات جغرافية وتاريخية صارخة(6)، إذ يقدم معطيات غير دقيقة حول النيجر وجني ومالي وحول بعض التواريخ، بالإضافة إلى مؤشرات أخرى جعلت بعض الباحثين المتخصصين في غرب إفريقيا -رايمون موني مثلا- يبدي شكوكه بخصوص الرحلتين اللتين قام بهما الوزان إلى السودان الغربي في مطلع القرن 16م، مبررا ذلك بأن المعلومات التي أوردها حول المنطقة غامضة ولا تقدم الانطباع بأنه زارها فعلا(7).

- مشكل الحصول على معطيات إحصائية بحكم أن المصادر المغربية على غرار المصادر التقليدية بشكل عام لم تهتم بالرقم إلا بكيفية عرضية، ويرتبط هذا الإشكال أساسا بطبيعة الكتابات التاريخية التقليدية والطرح المنهجي الذي تتبناه، حيث تهتم بالأحداث السياسية والعسكرية أكثر ما تهتم بالأرقام المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية أو ما يعرف «بالتاريخ الكمي»(8).

وإذا كانت هذه هي الأهمية التي تكتسيها المصادر المغربية -لاسيما منها كتب الرحلات- والإشكاليات التي تطرحها بالنسبة لموضوع هذه الدراسة على المستويين المعرفي والمنهجي، فما هي القيمة العلمية والمعرفية لكتاب «وصف إفريقيا»؟ وما مدى استفادتنا منه هنا؟

2 - القيمة العلمية والمعرفية لكتاب «وصف إفريقيا» ومدى الاستفادة منه في هذه الدراسة

إذا نحن تجاهلنا مثل هذه الشكوك التي أثيرت حول كتاب «وصف إفريقيا»، فإنه يمكن القول إنه «يحتل مكانة خاصة بين كتب الرحلات والجغرافيين»، ليس فقط لأن صاحبه – كما هو شائع- شاهد عيان للأحداث التي أوردها، بل وأيضا «لشمولية معلوماته التي جمعت بين التأريخ للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية(9)، وكذلك «الذهنية المتفتحة التي كتب بها»، مما جعل بعض النقاد الأوربيين يعتبرونه «كتأليف عربي كتب بتفكير أوربي»(10).

لكل هذا ولغيره فإن كتاب «وصف إفريقيا» يشكل، بالنسبة لموضوعنا، مصدرا أساسيا: فهو يجيب عن مجموعة من تساؤلاتنا حول عبور الصحراء توضيحا وتفسيرا. ويتحدث عن الطرق التي كانت تسلكها القوافل التجارية. ويرسم لنا صورة كاملة عن تحول المسالك القفلية نحو المغرب الأوسط وإفريقية وما ترتب عن ذلك من عواقب وخيمة على الواقع التجاري والاقتصادي للمغرب(11). كما أنه يقدم لنا فكرة عن ارتباط بعض الأنشطة الاقتصادية المغربية بالتجارة الصحراوية، وكيف أن هذه الأخيرة شكلت خلال القرن 16م المورد الرئيس لمداخيل شيوخ القصور بالجنوب المغربي، ليس فقط بسبب ما كانوا يحققونه من أرباح تجارية، وإنما أيضا بفضل «ضرائب المرور» التي كانوا يفرضونها على التجار مقابل حمايتهم عند المرور بمواطنهم أو عند التوقف بها، أو تلك التي كانوا يفرضونها على ضرب السكة وعلى اليهود(12)، هذا بالإضافة إلى كون هذا النشاط -أي التجارة الصحراوية– شكل الميكانيزم المتحكم في العلاقات بين مختلف فئات ساكنة الجنوب الشرقي المغربي(13).

وأفادنا كتاب «وصف إفريقيا» كذلك في تحديد بعض المفاهيم التي تهم موضوع هذه الدراسة لأن الحسن الوزان يوضح بعضها، كمفهوم «بلاد السودان» الذي يعطينا فكرة عن تحديده الجغرافي والبشري الذي يكتنفه نوع من الغموض والاضطراب وانعدام الدقة، حيث يرى أن هذه البلاد تقع على ضفتي النيجر وروافده، إذ يقول: «تمتد على ضفتي النيجر وروافده، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدئ أحدهما عند نوميديا وينتهي في هذه البلاد، والآخر يمتد إلى البحر المحيط»(14).

وعلى العموم فإنه من خلال كتاب «وصف إفريقيا» نستطيع أن نقف على جملة من الأمور المرتبطة بالرحلات التجارية بين المغرب وبلاد السودان الغربي، سواء على المستويات اللوجستية أم على المستويات التنظيمية والأمنية وبعض الجوانب الأخرى، ومن ذلك مثلا:

أ - مشكل الماء

كانت ندرة نقط الماء وبعد المسافات بينها من أخطر المشاكل التي كانت تواجهها القوافل التجارية أثناء عبورها الطويل والشاق للصحراء، لذلك كان مصير القوافل واستمرارها على قيد الحياة ومدى نجاحها أو فشلها في رحلاتها يتوقف على هذه المادة الحيوية(15). وقد ذكر الوزان، في هذا الإطار، أن الماء بصحراء صنهاجة لا يوجد إلا على مسافة سفر ستة أيام أو سبعة ، وفوق ذلك فهو مالح أحيانا، مما يفسر هلاك الناس عطشا في هذه الصحراء(16). ولهذا وللتغلب على هذه العقبات فإنه، علاوة على الجهود والخدمات التي كانت تبذل من أجل تجاوز الأخطار التي كانت تواجهها القوافل التجارية وتذليل الصعاب تسهيلا لعملية العبور وتشجيعا للنشاط التجاري، كانت تتخذ كذلك بعض الإجراءات الأخرى من لدن التجار المتوجهين نحو بلاد السودان، ومنها إعداد الماء الذي يكفي تلك الرحلات المحفوفة بالعديد من الصعاب والمخاطر(17). وأشار الوزان إلى أن بعض الإبل كان خاصا بحمل الماء، وأن مرافقي الرحلات والقوافل كانوا يقومون أيضا، أثناء رحلاتهم، بتسوير الآبار المعرضة لخطر الزوابع الرملية وترميمها من الداخل بواسطة عظام الإبل الهالكة، ثم يغطونها بجلودها للمحافظة عليها. لكن مع ذلك فإن تلك الآبار كانت تتعرض أحيانا لعملية الردم مما كان يجعل حداة الإبل يضطرون إلى قتل إحداها ببقر بطنها للاغتراف مما تختزنه من ماء(18).

ب – إعداد القافلة وتنظيمها

كانت الإبل أهم وسيلة نقل متاحة لعبور الصحراء، ولهذا كان لابد من اقتناء الأعداد المطلوبة منها أثناء الإعداد للقيام بتلك الرحلات التجارية أو غيرها. ويسجل الوزان أن توفير هذه الوسيلة من النقل كانت منوطة بالتجار، وقدم لنا بهذه المناسبة فكرة عن بعض أثمنة الإبل التي كانت تعرض للبيع، وكانت تختلف تبعا لمجموعة من المقاييس، مثل اللياقة

البدنية، ومجال استغلالها، وما إلى ذلك. وفي هذا الباب قدر ثمن الجمل الصحراوي بعشر دوكات، في حين بيع ببضعة دنانير فقط أثناء رحلته إلى بلاد السودان(19).
وكانت تيـگورارين من بين أهم نقط تجمع القوافل، «لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعا.»(20)
أما الفترة الزمنية التي كانت القوافل التجارية تقطع خلالها الصحراء من المغرب في اتجاه بلاد السودان تفاديا للزوابع الرملية والحرارة المفرطة فكان الفصل المناسب لها هو فصل الشتاء، وذلك لانخفاض درجة الحرارة فيه، وتجنب الهلاك من العطش(21).

ج – الهاجس الأمني

تطرق الوزان كذلك للهاجس الأمني الذي كان يمثل إحدى المشاكل الأساسية التي كانت تواجهها القوافل التجارية أثناء عبورها للصحراء، لاسيما منها التي لم تكن تتوفر على «جوازات المرور» أو «تصريحات الأمان». ويشير في هذا الصدد إلى أن أحد قصور مضغرة، على وادي زيز، كان يقيم فيه «أمير الدائرة، وهو عربي، وله فخذ من قبيلته (...) لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح، فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا وجردوا التجار والرائدين.»(22) ويضيف أن سكان إقليم الخنـگ -على وادي زيز نفسه- كانوا يخضعون للأعراب الذين «يسيطرون على الطريق المؤدية من فاس إلى سجلماسة، ويرغمون التجار على أداء مبلغ مالي مرتفع(23)

د - طرق التجارة العابرة للصحراء

بحكم الأهمية التي كانت تكتسيها طرق التجارة العابرة للصحراء في العلاقات التجارية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، وكذا التفاعل الحضاري الذي كان بينهما، فإن المصادر المغربية -ومنها كتاب «وصف إفريقيا»- تقدم مادة وافرة، إذا ما عززت ببحوث حديثة مبنية على التنقيبات والأعمال الأركيولوجية، فإنها ستسمح بالكشف عن حقائق مهمة تساعد على رسم الحالة العامة التي كانت عليها تلك الطرق والتحولات التي عرفتها في المكان والزمان(24).
وفي هذا السياق، ومع نهاية القرن 15م، وعلى إثر سقوط سجلماسة في قبضة عرب معقل، ووجود التجار الأوربيين بوادي نون من أجل ممارسة النشاط التجاري على ساحل المغرب الجنوبي، تحولت التجارة العابرة للصحراء من طريق سجلماسة، الذي فقد أهميته، إلى طريق درعة الشرقية(25)، إذ يشير الوزان، في هذا الإطار، إلى توافد تجار بلاد السودان على هذه المنطقة من أجل استبدال منتجاتهم وتعاطي سكان المنطقة للتجارة مع تلك البلاد(26). ويضيف بأن أهمية وادي نون (تكاوست) قد زادت بفضل العلاقات التجارية مع أوربا. وربط الازدهار الذي عرفته تكاوست بالعلاقات التجارية مع بلاد السودان(27).
ويؤكد الوزان أن تكاوست (وادي نون) أصبحت أكبر مركز للمبادلات التجارية بين السودان وأوربا، و سوقا تجاريا مهما لأنها شكلت نقطة التوقف الأولى بعد ودان خلال مرحلة العودة من بلاد السودان. ويشير إلى أن تجارها كانوا يحملون قطعا من الثياب «مرة في السنة لبيعها إلى تنبكت وولاتة من بلاد السودان»، وأنها شكلت سوقا مهما للرقيق إذ أقام بها ثلاثة عشر يوما صحبة «نائب الشريف، لشراء إماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير.»(28)
ورغم أهمية المحور الغربي في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان، والتي استمدها من توفره على ظروف طبيعية وبشرية ملائمة، فإنه لم يخل من صعوبات ومشاكل تمثل أهمها أساسا في تراجع تجارة القوافل الناجم عن انعدام الأمن بفعل الخطر الذي شكله تحرك البرتغاليين على السواحل الأطلسية -بين سنتاكروز ونهر السنغال- وكذا تحركات عرب معقل بين سجلماسة والساحل الأطلسي، إذ يشير الوزان إلى أن سكان المنطقة كانوا منقسمين إلى ثلاث فرق يكاد القتال لا ينقطع بينها، ويستعين كل فريق على الآخر بالأعراب الذين يناصرون هؤلاء تارة وأولئك أخرى بحسب ما يتلقون منهم من أموال(29).
وبخصوص المحور الأوسط المباشر: درعة-تغازى-تنبكت، يرى الوزان أنه أصبح يمر عبر منطقة درعة التي أصبحت تكتسي أهمية بالغة في العلاقات التجارية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان، حيث وجدت بها قصور محصنة ومستقلة أبرزها قصر بني صبيح. ويسجل الوزان أن هذه القصور كان يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد(30). وليس من المستبعد أنه وجد من بينهم تجار سودانيون مما يؤكد هذه الأهمية التي أصبحت درعة تحتلها في العلاقات التجارية مع السودان الغربي(31).
وفيما يتعلق بالمحور الشرقي: توات–گورارة-گـاو، يرى المصدر نفسه أن قوافل فاس وتلمسان كانت، مع بداية القرن 16م، تلتحق، وهي في طريقها نحو بلاد السودان، بفـگـيـگ، وتنحدر مع وادي زوسفانة، ثم وادي الساورة المؤدي إلى بستان النخيل تسابيت، وهي ملحقة غربية لتـگورارين أو گـورارة(32).وكان لتوات، كنقطة انطلاق للقوافل التجارية بالنسبة لهذا المحور، امتياز كبير عن تافيلالت بحكم موقعها المتقدم جنوبا. وقد أكد الوزان هذه الأهمية حيث أشار إلى أنها شكلت «مجمع القوافل لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعا.»(33) كما سجل أن سكان واحات توات وگـورارة

«أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان.»(34)

هـ - المراكز التجارية

لعبت المراكز التجارية، التي امتدت على طول وأطراف المحاور التجارية العابرة للصحراء، أدوارا مختلفة في العلاقات التجارية التي جمعت بين المغرب وبلاد السودان، كأسواق تجارية استقطبت تجار شمال الصحراء وجنوبها وأبرمت فيها صفقات تجارية مهمة(35)، وكمحطات سمحت للقوافل التجارية بالتوقف من أجل الاستراحة(36)، والخضوع لتنظيم معين استعدادا لعبور الصحراء(37)، ولأنها كانت بمثابة صلات وصل بإمكان القوافل التجارية أن تتزود فيها بالمؤن والمواد التجارية المختلفة وتعمل على إعادة توزيعها وترويجها(38)، كما شكلت سوقا استهلاكية للمواد التي يصدرها السودان الغربي(39)، ومن بين هذه المراكز:

* سجلماسة: التي كانت حسب الوزان «عبارة عن إقليم يمتد على طول واد زيز ابتداء من الخنك (...) ونزولا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا.»(40) أسسها بنو مدرار في أواسط القرن الثاني للهجرة، غير أن ابن أبي محلي السجلماسي-على حد قول محمد حجي(41)- ذكر في تقييده أنها من تأسيس العرب الفاتحين سنة 40هـ، ثم وسعها بنو مدرار، واستولى عليها بعد ذلك الفاطميون الذين أدرت عليهم أموالا طائلة لكونها شكلت مركزا تجاريا مهما في طريق القوافل التجارية المؤدي إلى بلاد السودان، وبعد قيام دولة المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري خضعت من جديد لنفوذ الحكم المغربي «وظلت عامرة أيام الموحدين والمرينيين» إلى أن تم تخريبها قبيل ظهور السعديين «فانتقلت أهميتها إلى القصور المجاورة»(42)، لأن الوزان عندما زارها في بداية القرن 16م وجدها خربة تماما(43).

ومن أهم القواعد القفلية التي كان لها حضور فاعل وبالغ الأهمية في العلاقات التجارية بين سوس وبلاد السودان(44):

* تكاوست: عرفت ازدهارا كبيرا، حيث أصبحت خلال القرن 16م أكبر مركز للمبادلات التجارية بين السودان وأوربا، كانت تنطلق منه القوافل التجارية وهي محملة بالحياك وأقمشة صوفية من صنع محلي، كانت تجد إقبالا في الأسواق النيجرية(45)، لأن هذه المدينة كانت مركزا لصناعة النسيج، حيث كانت تصنع فيها منسوجات صوفية تصدر إلى ولاته وتنبكت، ويقول الوزان في هذا الصدد: «يباع الصوف فيها بأبخس الأثمان، ويصنع منه الكثير من قطع الثياب الصغيرة التي يحملها تجار المدينة مرة في السنة إلى تنبكتو وولاتة من بلاد السودان.»(46) وشكلت تكاوست أيضا أكبر خزان تجاري وسوقا مهما للذهب والرقيق في المنطقة بكاملها، ويشير الوزان إلى أنه أقام بها «لمدة ثلاثة عشر يوما مع نائب الشريف، لشراء إماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير.»(47)

وتقاسمت مع تكاوست هذه الأهمية بالجنوب المغربي، محطات وقواعد تجارية أخرى لم تقل عنها مكانة وأهمية، نذكر منها:

* تدسي: ارتبط بها وجود عدد مهم من تجار بلاد البربر وبلاد السودان، وكانت بها مزارع ومعاصر للسكر، إذ يقول عنها الوزان: «تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة وفيها أناس يتجرون مع بلاد السودان.» (48)

* تيوت: شكلت، إلى جانب تدسي، مدينة رئيسة بسهل سوس(49)، كانت تستقبل التجار من مختلف الجهات، كفاس ومراكش وبلاد النيجر. وذكر الوزان أن تجار بلاد السودان كانوا يشترون منها مادة السكر(50).

* إفرن: تعتبر من المراكز التجارية المهمة التي اشتهرت بها أيضا منطقة سوس. وتحدث الوزان عن غنى سكانها بفضل شرائهم منسوجات كتانية من البرتغاليين بأگادير، وأقمشة غير متقنة الصنع لبيعها في ولاتة وتنبكت مضيفين إليها منتوجات نحاسية من صنعهم المحلي(51).

* توات: أصبحت توات منذ القرن 14م –بسبب تحول الطرق التجارية العابرة للصحراء نحو الشرق وتدهور سجلماسة- نقطة انطلاق القوافل التجارية نحو بلاد السودان(52)، وذكر الوزان أن سكان هذه المنطقة «أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان.»(53) وشكلت تيگورارين «مجمع القوافل، لأن تجار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعا.»(54)

* ودان : تعتبر من المحطات الصحراوية المهمة التي كان لها حضور وازن وفاعل في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان. ويرى الوزان أن ثروتها ارتكزت على مخزونها من مادة الملح لاسيما منها المستخرجة من إجيل(55). وإلى جانبها تشيت التي ربطتها علاقات تجارية مع بلاد السودان بفضل الرحلات التجارية التي كان سكانها يقومون بها نحوها(56).

ومن المراكز التجارية السودانية التي لعبت دورا مهما في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان، نذكر أيضا:

* تنبكت: يرى الوزان أنها أسست من قبل ملك عرف بمنسى سليمان في القرن 7هـ/13م(57)، وأصبحت محطة نهائية

للقوافل القادمة من الشمال أو الجنوب عن طريق النيجر، فغدت بفضل ذلك مركزا تجاريا ذاعت شهرته(58). وقد لاحظ الوزان أن سكانها أغنياء مترفين لاسيما منهم الأجانب المقيمين في البلاد، حتى إن الملك زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما(59).

* كاغو/كاو: شكلت مع تنبكت محطة لتوقف القوافل التجارية وهمزة وصل بين المغرب وبلاد السودان(60)، كان سكانها -حسب الوزان- من التجار الأغنياء، يتجولون دائما بسلعهم في المدينة، والتجار السود منهم يبادلون الذهب بالمواد المستوردة من بلاد البربر وأوربا(61).

و - الإطار المنظم للتجارة مع بلاد السودان

فيما يخص الإطار المنظم للتجارة مع بلاد السودان، فقد لعب التجار دورا بالغ الأهمية، إذ كانت القوافل الخاصة تلتحق إما بقافلة المخزن لعبور الصحراء(62)، أو تنتظر تجار بلاد الزنوج الذين كانوا يتوافدون من مختلف جهات بلاد السودان على كل من تيوت وتدسي وتكاوست لشراء سكر سوس والأقمشة الصوفية، من أجل العبور بشكل جماعي(63).

ولعب اليهود أدوارا مهمة ومختلفة في العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي، حيث أصبحوا هم الوسطاء المفضلون بين تجار السودان وسماسرة أوربا، مما جعلهم يحصلون على أرباح مهمة، وفي هذا الإطار، يشير الوزان إلى وجود جاليات يهودية في حواضر منطقة تادلة، ويؤكد أهميتها العددية والنوعية من خلال تراكم ثروات هائلة بين أيديها، فاقت ما هو متوفر في صندوق خزينة ملك فاس الوطاسي، وذلك بفضل حيوية أنشطتها التجارية المستمدة من أهمية الطريق العابر للمنطقة(64).

وبخصوص تقنيات التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان، يشير الوزان إلى أن القبائل الصحراوية، كانت تعرض الخيول البربرية لبيعها ببلاد الزنوج –تحديدا في تنبكت وبلاد بورنو- للأمراء الذين كانوا يدفعون مقابل كل حصان خمسة عشر إلى عشرين عبدا(65). كما استعمل التبر -أي الذهب غير المسكوك أو الخالص- في المعاملات التجارية لاسيما منها الكبرى(66). أما النقود الصدفية فشكلت بدورها عملة في غاية الجودة بالسودان الغربي، وقد استعملت في العمليات التجارية الصغرى أو العادية(67).

ي - المواد والسلع التجارية

تنوعت صادرات المغرب نحو بلاد السودان وشملت مواد محلية وأخرى صحراوية في مقدمتها الملح الذي شكل المادة الأساس في هذه المبادلات(68) لندرته وأهميته، ولأنه مادة صحراوية لم تتوفر لا بالمغرب ولا ببلاد السودان(69)، ولأن التحكم في هذه المادة كان يعني بكل سهولة احتكار الذهب الآتي من الجنوب. ويبرر الوزان هذه الأهمية التي اكتساها الملح بإفريقيا السوداء -منذ أزمنة غابرة- وهذه الحاجة الماسة التي جعلت شعوب المنطقة الغابوية تقوم بمقايضته بمعدن نفيس هو الذهب، بقوله: «عندما يأكلون الخبز فإنهم يمسكون بقطعة ملح في يدهم فيلحسونها مع كل مضغة حتى لا يستهلكوه بكثرة.» (70)

وبخصوص الملاحات تحدث الوزان عن ملاحة تغازى الشهيرة وذكر أن بها مناجم للملح تشبه مقالع الرخام تستخرج منها هذه المادة من «حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح (...) يأتون مع القوافل ويقيمون هناك كمنجميين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيرا.» (71)

وشكلت التمور غذاء أساسيا لسكان الملاحات المعروفة، ولاسيما منهم أهالي تغازى الذين «لم يكن لهم من قوت إلا ما يحمل إليهم من تمور من سجلماسة ودرعة.»(72) كما أن جزءا من السكر المغربي كان يصدر إلى السودان، فمدينة تيوت مثلا كان يقصدها «عدد من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر.» (73)

كما أن جزءا كبيرا من الإنتاج الحرفي المغربي -لاسيما منه الفاسي- كان يصدر إلى بلاد السودان التي اعتبرت سوقا تقليديا لتلك الصادرات(74)، وكانت الأقمشة في مقدمة هذه المنتجات رغم أن صناعتها كانت منتشرة في بلاد السودان، إذ يشير الوزان، في معرض حديثه عن مدينة تنبكت، إلى وجود «دكاكين كثيرة للصناع والتجار» بها ولاسيما منها «دكاكين نساجي أقمشة القطن.»(75) لكن إنتاجها لم يكن يفي بالحاجيات المحلية(76)، الأمر الذي استدعى استيراد مختلف أنواع المنسوجات من الشمال الإفريقي، حيث كان تجار سوس يحملون المنتجات النسيجية مرة في السنة إلى تنبكت وولاتة من بلاد السودان(77).

واكتست الخيول المغربية ببلاد السودان خلال القرنين 15م و16م، طابعا خاصا بفضل الإقبال الكبير الذي لقيته من الملوك السودانيين الأسكيين منهم والبرنويين، إذ يشير الوزان إلى أن «الجياد تأتي من بلاد البربر مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثني عشر يوما على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمنا مناسبا.»(78) ويضيف «أن فرسا واحدا كان يساوي خمسة عشر أو عشرين عبدا»، و»أن الحصان الذي يساوي عشرة مثاقيل بأوربا يباع هناك بأربعين إلى خمسين مثقالا.»(79) لكن هذه العملية لم تكن تخلو من صعوبات ومشاكل، لأن الوزان يؤكد أن ملك بورنو كان يشن الغارة على العدو بالخيول

التي قدمها له تجار بلاد البربر ويتركهم ينتظرون إلى عودته، وعلى حد قوله: «ربما مكثوا في انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر، وهم على نفقة في هذه المدن، وعند عودته يجلب معه أحيانا من العبيد ما يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، وأحيانا يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفي بالثمن فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة. ولما ذهبت إلى هذه المملكة وجدت فيها عدة تجار مستائين راغبين في ترك هذه التجارة وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبدا لأنهم كانوا ينتظرون قبض الثمن منذ سنة.» (80)

ولم تقتصر صادرات المغرب نحو بلاد السودان على المواد المحلية وحدها، بل شملت كذلك سلعا أخرى غير مغربية كان التجار في المغرب يستوردونها من جهات أخرى، لاسيما من أوربا، ويصدرونها إلى بلاد السودان الغربي، فكان هؤلاء يقومون بذلك بدور الوسيط التجاري بين أوربا وإفريقيا جنوب الصحراء. ويشير الوزان في هذا الباب مثلا إلى أن سكان إفرن وتجارها كانوا أغنياء بفضل شرائهم منسوجات كتانية من البرتغاليين في أگـادير وكذا أقمشة أقل جودة وبيعها بالسودان(81). ونظرا لارتفاع أثمنة هذه الملبوسات، فإنه ليس من المستبعد أن تكون قد خصصت للملوك وحاشيتهم وكذا لكبار التجار، ذلك أن «أبسط قماش أوربا» كان «يباع بأربعة مثاقيل للكنة.»(82) والقماش الرفيع مثل «المنتشينو» و»الмينمو» يباع بخمسة عشر مثقال، «أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي، والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالا.»(83)

واحتلت مواد أخرى، مثل الأواني الخزفية والرخامية والزجاجية، والأسلحة النارية والبيضاء...، أهمية كبيرة ضمن لائحة صادرات المغرب نحو السودان الغربي(84). ويشير الوزان في هذا الإطار إلى أن «أقبح سيف أوربي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال يساوي هناك أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل.»(85)

وبخصوص دور السودانيين في تفاقم ظاهرة الاسترقاق، لاحظ الوزان أثناء زيارته لمملكة صونغاي، الأعداد الكبيرة من الرقيق بأسواق تنبكت وكاغو والتي كانت تباع بأثمان معقولة، وفسر ذلك بالغارات التي كان يقوم بها الملك ضد جيرانه. يقول الوزان في هذا الإطار إن ملك تنبكت «كان يحارب الأعداء من جيرانه وممن يمتنعون عن أداء الخراج إليه، وإذا انتصر باع في تونبوكتو كل ما أسره من القتال حتى الأطفال.»(86) كما ذكر أن صاحب مملكة بورنو كان يستقبل تجارا من بلاد البربر أتوه بالخيل ليستبدلوها بالعبيد(87)، ويقول في ذلك أن هذا الملك كان يشن الغارة على أعدائه بتلك الخيل ويترك التجار ينتظرون إلى عودته فإن كان عدد الأسرى يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، أخذوا الثمن وذهبوا، وإلا اضطر هؤلاء الانتظار حتى السنة الموالية إذا لم يكن للملك من العبيد ما يفي بالثمن، «ذلك أن هذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة.»(88)

وفيما يتعلق بظاهرة الاسترقاق، يزودنا الوزان ببعض المؤشرات الإحصائية التي تبين استغلال العبيد كهدايا، إذ يشير إلى أن شيخ منطقة تانسيتا بدرعة قدم هدية إلى ملك فاس خمسين عبدا وعشرة خصيان وخمسين أمة(89). كما يعطينا فكرة عن اختلاف أسعار الرقيق حسب المكان والجنس أو النوع والسن. ففي بداية القرن 16م، تم بيع عبد بفاس بعشرين مثقالا، وبيعت أمة بخمسة عشر مثقال(90)، وبيعت فتاة بكاغو عمرها خمسة عشر سنة بست مثاقيل، وفتى بنفس المبلغ، وغلام بثلاثة مثاقيل، وعبد مسن بنفس الثمن(91).

ويقدم الوزان كذلك، معطيات في غاية الأهمية حول دور المعادن النفيسة في الحياة الاقتصادية بالمغرب خلال القرن 16، إذ يشير إلى أن صناعة هذه المواد كانت من بين الأنشطة الأساسية التي مارسها اليهود في المغرب، واستخدموا يدا عاملة مهمة في صناعة المجوهرات(92) وصناعة خيوط الذهب(93). وسجل في هذا الصدد وجود عدد مهم من الصناع اليهود الذين مارسوا هذا النشاط في كل من تدسي ودرعة على الطريق الرابط بين فاس وتنبكت(94)، وبرر تعاطي اليهود لهذا النشاط بكون المسلم لم يكن بإمكانه ممارسة مهنة صائغ على اعتبار أن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساوي وزنها كان بمثابة ربا(95).

واحتكر اليهود عملية سك النقود بدور السكة، وأكد الوزان وجودهم بكثرة داخل القصور الفلالية كما في قصري «تبعصامت» و»المامون»(96). وقد وجدت دور أخرى لسك النقود والعملات بكل من فاس ومراكش وإفرن(97).

خـلاصـة

يتضح من خلال ما سبق أن كتاب» وصف إفريقيا «يشكل حقيقة مصدرا نفيسا، وسندا مرجعيا لا غنى عنه لدراسة جوانب مختلفة من تاريخ العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان في بداية العصر الحديث خاصة، نظرا لما يزخر به من معطيات قيمة في غاية الأهمية، من شأنها، إذا ما استغلت بشكل جيد، أن تساعد على إعادة بناء ورسم صورة واضحة عن الروابط والوشائج العميقة التي جمعت بين الطرفين المغربي والسوداني، والتي كان لها الفضل في ظهور تراث مغربي–إفريقي مشترك سيظل شاهدا على تلك الروابط والصلات.

الهوامش :

1 - اعتمدنا في هذا العمل ط. 2، بيروت 1983. (الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، جزآن، تعريب: محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين.).

2 - Michel ABITBOL; Tombouctou et les Arma de la conquête marocaine du Soudan Nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'empire Peulh de Macina en 1833. éditions Maison Neuve, Paris 1979, p.13.

3 - الحسين عماري، المغرب والتجارة العابرة للصحراء من القرن 15م إلى القرن 18م . إسهام في دراسة تاريخ المغرب وعلاقاته التجارية مع السودان الغربي في العصر الحديث. جزآن، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، نوقشت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بتاريخ 01/07/2003، إشراف: مصطفى ناعمي وزهرة طموح، ج.1،ص.37.

4 - عبد اللطيف كمال، «بين كتابين صور المغرب وأوربا في أدب الرحلات». العلم الثقافي، 14 شوال 1417هـ/22 فبراير 1997، عدد 17102، ص. 3

5 - Abdelaziz EL ALAOUI; Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du XI Milieu du XIV ème s.) Contribution à l'histoire économique sociale et politique du Maroc Médiéval. Thèse en vue du doctorat de 3ème cycle, BORDEAUX, 1983, p.17.

6 - أنظر التقديم الذي قام به مترجمان كتاب «وصف إفريقيا»، م. س.، ج. 1، ص. 19.

7 - R. MAUNY; «Notes sur les grands voyges de Léon l'Africain », Héspéris, Tome XLI, Année 1954, 3ème et 4ème trim., pp. 386-389.

والحقيقة أن الوزان اعتمد في كتابته «وصف إفريقيا» على الذاكرة فقط، وهو ما يبرر الوقوع في تلك الهفوات والأخطاء. (الباحث).

8 - الحسين عماري، م. س.ج.1، ص. 39.

9 - أحمد بوكاري، «ملاحظات حول كتابة تاريخ منطقة تادلة»، أعمال ندوة: تادلا-التاريخ-المجال-الثقافة، الملتقى العلمي لمنطقة تادلا، أبريل 1992، جامعة القاضي عياض، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص. 102.

10 - الوزان، م. س.، ج. 1، ص. 18.

11 - الحسين عماري، م. س ،ج.1، صص. 41.11

12 - نفس المرجع والصفحة.

13 - Larbi MEZZINE; Le Tafilalt, contribtion à l'histoire du Maroc aux XVII et XVIII s. Publ. F.L.S.H, Rabat, séries thèses 13, 1995, p. 81.

14 - الوزان، م. س،ج.2، ص. 161.

15 - فاطمة الزهراء طموح، «أكبار»، معلمة المغرب، ج.2، منشورات الجمعية المربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا 1989، ص. 600.

16 - الوزان، م. س.، ج. 1 ، صص. 75-76.

17 - الحسين عماري، م. س.، ج. 1، ص. 85.

18 - الوزان، م. س.، ج. 1، ص. 76..

19 - J. DEVISSE; Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec La Méditerranée, un essai sur le commerce africain médiéval du XI au XVI s, R.H.E.S, 1972, p. 424.

وأيضا: الحسين عماري، م. س.، ج.1 ، ص. 87، هامش 38.

20 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 133.

21 - نقسه، ج. 1، ص. 76.

22 - نفسه، ج. 2، صص. 122-123. والحسين عماري، م. س.،ج.1، صص. 96-97.

23 - الوزان، م. س.، ج. 2، صص. 122-123.

24 - الحسين عماري، م. س.، ج. 1، صص. 107-108.

في هذا الإطار نشير إلى الجهود التي بذلها جون دوفيس الذي تمكن من الكشف عن بعض المواقع الأثرية التي كان لها حضور قوي وفاعل في تاريخ العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان والقيام بقراءة نقدية لمصادر الإخباريين،حيث انتبه إلى الهفوات التي ارتكبها الجغرافيون العرب فيما يخص قياس المسافات بالطول. راجع: م. ن.، ج. 1، ص. 107، هامش 134. وأيضا:

ZAKARI .DRAMANI, ISSIFOU ; L'Afrique Noire dans les relations internationales au XVIs, Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhai. éditions Karthala, Paris 1981, p. 101.

25 - J. Meunié; Le Maroc Saharien des origines au 17ème s (1670). Vol. I, librairie Kline Kiek, 1982, pp.393-395.

26 - الوزان، م. س.، ج. 2، صص. 119-132-133.

27 - م. نفسه، ج. 2، صص. 108-120.

28 - م. نفسه، ج. 1، ص. 120.

29 - م. نفسه، ج. 2، ص. 120. وأيضا: ZAKARI. DRAMANI, ISSIFOU; op. cit., p. 103

30 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 119.

31 - الحسين عماري، م. س.،ج.1،ص.120، هامش 182.

32 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 133. وأيضا: J. Denise

MEUNIĒ; op .cit., marge 82, p. 875.

33 - الوزان، م.س.، ج.2، ص.133.

34 - المكان نفسه.

35 - Henri LABOURET; L'Afrique précoloniale, Que sais-je? n° 241, P.U.F., Paris 1959, p. 242.

36 - Ibidem

37 - Fatima Zahra TAMOUH; Le Maroc et le Soudan au XIXs (1830-1894). Contribution à une histoire interrégionale de l'Afrique. Thèse en vue du doctorat de 3ème cycle, Sorbonne, Paris I, 1982, p.201.
ومحمود حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا. دار الفكر العربي، القاهرة، ط. 3، 1986، ص. 190.

38 - Ibid.et Jean-Louis MIEGE ; Le commerce transsaharien au XIXs, Essai de quantification. R.O.M.M.32, 1981,2ème semestre C.N.R.S.U.A.M .Aix en Provence, p. 96..

39 - عبد العزيز العلوي، «فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي (فرضيات ووقائع)». أعمال الندوة الدولية حول: فاس وإفريقيا –العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية- الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات3، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس 28-30 أكتوبر 1993، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996، صص. 81-96.

40 - الوزان، م.س.، ج. 2، ص. 120.

41 - المكان نفسه،ص.121،هامش10.

42 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 121، هامش 10.

43 - م. نفسه، ج. 2، ص. 120.

44 - الحسين عماري، م. س.، ج. 1، ص. 142.

45 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 120.

46 - المكان نفسه.

47 - المكان نفسه.

48 - م. نفسه، ج. 1، ص. 119.

49 - الحسين عماري، م. س.،ج1، ص. 145.

50 - الوزان، م. س.، ج. 1، ص. 115.

51 - م. نفسه، ج. 2، ص. 117.

52 - م. نفسه، ج. 2، ص.133. والحسين عماري، م. س.، صص. 146-147.

53 - الوزان، م. س.، ج2، ص.133.

54 - الوزان، م. س.، ج2، ص. 133.

55 - م. نفسه، ج. 2، ص. 116.

56 - المكان نفسه.

57 - م. نفسه، ج. 2، ص.165.

58 - الحسين عماري، م. س.،ج.1، ص. 163.

59 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 166.

60 - الحسين عماري، م. س.،ج.1، ص. 170.

61 - الوزان، م. س.، ج. 2، صص. 169-170.

62 - الحسين عماري، م. س.،ج.1، ص. 177.

63 - الوزان، م. س.، ج. 1، صص. 115-117-119-133.

64 - الحسين عماري، م. س.، ج. 1 ، ص. 181. والوزان، م. س.، ج. 1، صص. 182-183.

65 - الوزان، م. ن.، ج2، صص. 166-167.

66 - م. نفسه، ج. 2، ص. 167.

67 - المكان نفسه.

68 - الحسين عماري، م. س.،ج. 2، ص. 209.

69 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 166.

70 - م. نفسه، ج. 2، ص. 280.

71 - م. نفسه، ج. 2، ص. 108.

72 - المكان نفسه.

73 - م. نفسه، ج. 1، ص. 111.

74 - الحسين عماري، م. س.، ج. 2، ص. 226.

75 - الوزان، م. س.،ج. 2، صص. 165-166.

76 - الحسين عماري، م. س.، ج. 2، ص. 226.

77 - الوزان، م. س.، ج. 2، صص. 95-96.

78 - م. نفسه، ج. 2، صص. 166-167.

79 - م. نفسه، ج. 2، صص. 170-176.

80 - م. نفسه، ج. 2، صص. 176-177.

81 - نفسه، ج. 2، ص. 117.

82 - الكنة مقياس إيطالي قدره نحو مترين. راجع: م. ن.، ج. 2، ص. 170، هامش 23.

83 - م. نفسه، ج. 2، ص.170.

84 - الحسين عماري، م. س.، ج. 2، ص. 233.

85 - الوزان، م. س.، ج. 2، ص. 170.

86 - م. نفسه، ج. 2، ص. 166.

87 - م. نفسه، ج. 2، صص. 176-177.

88 - المكان نفسه.

89 - م. نفسه، ج. 2، ص.174.

90 - المكان نفسه.

91 - نفسه، ج. 2، ص. 169.

92 - م. نفسه، ج. 1، ص. 119.

93 - م. نفسه، ج. 1، ص. 283.

94 - م. نفسه، ج. 2، ص. 119.

95 - م. نفسه، ج. 1، ص. 283.

96 - م. نفسه، ج. 2، صص. 125-126

97 - م. نفسه، ج. 2، ص. 126.



Mohammed Mouhcine El Idrissi El Omari

L'ESPACE URBAIN DE LA MÉDINA DE FÈS

À L'ÉPOQUE ALAOUITE (JUSQU'AU PROTECTORAT)



AFRIQUE ORIENT

L'ESPACE URBAIN DE LA MÉDINA DE FÈS

À L'ÉPOQUE ALAOUITE (JUSQU'AU PROTECTORAT)

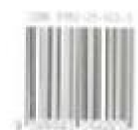
La dernière phase de l'histoire de l'urbanisme et de l'architecture traditionnels de Fès se place à l'époque alaouite.

La « limite supérieure » de cette époque est à placer, selon nous, juste au début de la seconde décennie du siècle dernier, c'est-à-dire à la date de l'instauration du Protectorat qui coïncide avec le début de l'emploi des matériaux de construction modernes (notamment le béton armé) à Fès. La limite inférieure quant à elle coïncide avec l'établissement du pouvoir alaouite dans la ville en 1666 J.-C.

Les renseignements dont nous disposons, restent cependant très lacunaires et, les recherches qui en ont été consacrées étaient liées, dans leur majorité, à une opinion communément admise faisant attribuer l'espace urbain de la ville, particulièrement celui de Fès el-bali, par ses spécificités organisationnelles et composantes architecturales majeures, à l'époque médiévale, en l'occurrence, la période du règne de la dynastie mérinide.

La ville alaouite se compose certes de structures et de formes architecturales et spatiales plus anciennes, mais, nous estimons aussi qu'elle fait état d'une nouvelle conception dans la configuration et l'organisation des espaces urbain et architectural.

En effet, l'objectif de cette étude, est de restituer la disposition générale de l'espace urbain de Fès à l'époque alaouite et d'identifier ses particularités par rapport aux formes anciennes de son occupation et de sa gestion.





المتحف اليوناني- الروماني



افتتح الخديوى عباس حلمى الثانى المتحف اليونانى الرومانى رسميا فى 17 اكتوبر 1892.
شرع الايطالى جيسيب بوتى فى أداء مهمة انشاء المتحف فى الاسكندرية تخصيصا للعصر اليونانى الرومانى.
بدأ الاهتمام بهذا العصر بجدية بعد عام 1866، عندما اكمل محمود الفلكى حفائره فى الاسكندرية، حيث قام بتسليط الضوء على خريطة المدينة القديمة.
وبدأ الاهتمام يزيد مع تكوين جمعية الاثار فى الاسكندرية فى عام 1893.
فى البداية، كانت المجموعات موضوعة فى مبنى بشارع رشيد سابقا (الأن طريق الحرية). اكتمل بناء أول عشر قاعات فى المبنى الحالى فى عام 1895.
القاعات الاضافية(ارقام 11 الى 16) اكتملت فى عام 1899، وقد تم الانتهاء من الواجهة فى عام 1900. بعض المصنوعات اليونانية الرومانية اليدوية، خاصة مجموعة العملات، تم جلبها من متحف بولاق (حاليا المتحف المصرى)بالقاهرة.
عندما تم تكليف جيسيب بوتى بادارة المتحف، قام بتزويده بمجموعات مجلوبة من حفائره فى المدينة وضواحيها. عندما تم تكليف ايفاريستو بريشيا واخيل ادريانى فيما بعد بادارة المتحف، قاما بتزويد المتحف بما يجود عليهما من قطع فى حفائرهم. كذلك قاما بجلب المصنوعات اليدوية للمتحف من الحفائر فى منطقة الفيوم.
يرجع تاريخ معظم المجموعات الموجودة فى المتحف إلى الفترة من القرن الثالث ق.م الى القرن الثالث الميلادى، وهى شاملة لعصرى البطالمة والرومان. تم تصنيف المجموعات وتنظيمها فى 27غرفة، بينما تظهر بعض القطع فى الحديقة الصغيرة.

إناء على شكل ديك



إناء سوائل علي شكل ديك ونري عرف الديك باللون الأحمر ومنقاره مفتوح لصب السوائل.
الجسم منقوش برسومات جميلة. كذلك نري الديك يمد رقبته ليصيح، وهو ملون بما يناسب الطائر الداجن خاصة اللون الأحمر.
وقد عثر علي هذه القطع في راقوده الحي الوطني بالإسكندرية خلال عصر الامبراطورية الرومانية. وهذه القطع الفخارية تمثل جمال وسلاسة الفن القبطي.

أمفورة صغيرة بزخارف متعرجة



أمفورة صغيرة: هي قدر كبير بمقبضين لتخزين السوائل. وحافتها عريضة ومقبضاها دائريان ومحاطة بزخارف زخرفية. وتنحني الأكتاف تجاه البدن المخروطي الشكل الذي يستقر على قاعدة صغيرة مستديرة.
يبدأ المقبضان الدائريان على الجانب عند الجزء السفلي من الأكتاف. ويمتدان إلى الجزء الأعلى من البدن: ومحيط الأكتاف مسنن. ورسم على الجزء العلوي من البدن خطان بينهما زخارف متعرجة ومنقطة.
وقد عثر على الأمفورة في دير القديس مينا. مع مجموعة من الأمفورات وعدد من الأوعية الأخرى التي يشتهر بها الدير.

تاج عمود علي هيئة رحم الأم



تاج عمود مجوف من أعلي عليه رسوم هندسية عبارة عن سلة مجدولة. يتوسط التاج زخرفة نباتية عبارة عن زهرة لوتس ذات ثلاثة أوراق.
وقد أعيد إستخدامه كحوض للمعمودية من قبل الأقباط.
شكل الفنان تجويف المعمودية في هيئة رحم الأم حيث يعتقد الأقباط أن تغطيس الأطفال في حوض المعمودية يعطي ولادة ثانية لذلك جعل التجويف علي هيئة رحم الأم.
وجعل في أسفل تاج العمود ثقب وذلك لتصريف مياه المعمودية.

تمثال من الرخام الأبيض للإلهة إيزيس

تمثال رائع للإلهة إيزيس بالحجم الطبيعي من الرخام الأبيض. يظهرها واقفة وهي ترتدي ثوباً طويلاً بعباءة وقد رُبط وشاح حول صدرها. وشعرها قد اتخذ شكل تسريحة ليبية. وتضع فوق رأسها تاج حتحور الذي يجمع بين قرص الشمس وقرنيّ بقرة وريشتين.

وتطأ بقدمها اليسرى تمساحاً. وتحمل بإحدى يديها وعاءها المفضل الخاص بمياه النيل المقدسة. بينما يلتف ثعبان حول اليد الأخرى التي وجدت منفصلة عن التمثال.

تمثال نصفي لديميتر سيلين



تمثال نصفي رائع لديميتر سيلين، وقد صورت برأسها مائلة إلى اليمين، ويزين جبينها الذي يغطيه اكليل من القماش، قرنان صغيران.
وعيناها الواسعتان محددتان جيداً، وإنسان العين فيهما مميز بدائرة، بينما أفرغت الحدقتان.
وديميتر هي إلهة القمح، وإلهة الموتى. وتمثل عادة بصولجان وسنابل قمح وشعلة أو رأس خشخاش.

جرة سوائل مزينة بطيور بنية داكنة



جرة مزينة بأشكال هندسية وحيوانية مذهبة. وتشكل صور طيور بنية داكنة. كرموز بالمسيحية.
المشهد الرئيسي على بدن الجرة. رسم المشهد بين خطين من أشكال المعين.
بينما تتكون بقية الزخارف على سطح البدن من خطوط دائرية موحدة المركز. قسمت الفوهة بخطوط. وهي محلاة بحافة زخرفية بارزة. والعنق مستدير وطويل. ويستقر البدن المسن على قاعدة مستديرة.

حلية زخرفية بنقش على هيئة راقصة



حلية زخرفية مستطيلة الشكل ومسطحة تماماً. يمثل عليها بالنقش البارز راقصة في حالة حركة تعزف على آلة موسيقية. وهى ترتدي ملابس فضفاضة مسترسلة تكشف عن صدرها ورجليها.

تظهر ثنيات الرداء بدقة بالغة وهى تتطاير من خلفها.أما الوجه فهو مستدير. خال من الملامح. وغير مفصل إلا جزء صغير في أعلى العين اليمنى.

المصدر: موقع مصر الخالدة

ترقبوا العدد الثامن من مجلة المؤرخ الالكترونية

عدد مميز

وخاص جدا

بدعم وشراكة من المجلس الجالية المغربية بالخارج



موضوع العدد : تاريخ الهجرة المغربية والمغاربية نحو الخارج

لإرسال مساهماتكم في نفس الموضوع لا تترددوا بمراسلتنا على الاميل التالي قبل 15 ماي 2010 :
magazine.histoire@yahoo.com